كنوز الأدب العالمى

(٤)

دراكولا

تأليف

برام ستوكر

ترجمة

إنجى بندارى أحمد

obeikandl.com

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية

دار دلتا للنشر

دلتا للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الأدارة

المحاسب

أحمد التلاوى

الناشر

سليمان القلشى

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الأولى

الكتاب : دراكولا

المؤلف : برام ستوكر

ترجمة : إنجى بندارى أحمد

تصنيف الكتاب : رواية

تصميم الغلاف : محمد عطية

إخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٨٥٧٩ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : 3 - 2 - 85265 - 977 - 978

العنوان : ٧ شارع الموسيقار على إسماعيل الدقى

التليفون : ٣٣٣٧٨٣١٩ - ٣٣٣٨٧٠٣٩

email : elyoumnew@gamil.com

obeikandl.com

الفصل الأول

جوناثان يبدأ رحلته

انطلق صفير القطار، وأغمض جوناثان هاركر عينيه مستسلمًّا لموسيقاه وإيقاعه. كان جوناثان مسافرًا إلى ترانسلفانيا بالقطار لإتمام عمل ما مع الكونت دراكولا. وكان محاميًا يعمل لمصلحة شركة مملوكة لشخص يُدعى السيد بيتر هوكينز. كانت الشركة تقدم المشورة للكونت بشأن شراء منزل عتيق فى لندن يحمل اسم كارفاكس.

فى الطريق إلى ترانسلفانيا، زار جوناثان فيينا وجال فى شوارع بودابست، ومر على الجسور الفاخرة التى تعرش نهر الدانوب، وتناول عشاءً شهيًّا من الدجاج بالبابريكا، وهو تابل تتميز به تلك المنطقة، فى فندق رويال فى كلوزنبيرج، ولسبب ما، كان يعتريه قلق شديد، فمع أن فراشه فى الفندق كان مريحًا جدًا، فقد راودته أحلام غريبة من كل ضرب ولون. قال جوناثان محدِّثًا نفسه: «السبب كان البابريكا بالتأكيد».

obeikandi.com

بعد تناول المزيد من البابريكا على الإفطار – وكانت مستخدمة فى العصيدة هذه المرة – عاد جوناثان إلى القطار ليستأنف رحلته إلى الشرق. عندما كان ينظر من النوافذ، رأى بلدًا يعمه الجمال بكل أشكاله. كانت تنساب به الجداول وتجرى به الأنهار، وضم مدنًا صغيرة، وكانت تظهر من حين لآخر قلعة أعلى أحد التلال، وفى كل محطة مرَّ بها القطار، كانت تقف مجموعة من الأشخاص المثيرين للاهتمام، بينهم نساء يرتدين ملابس ذات أكمام بيضاء كاملة وتنانير، ورجال سلوفاكيون بشوارب كثيفة سوداء، وقبعات رعاة البقر وأحزمة جلدية عديدة مليئة بالأزرار وأحذية عالية الساق.

كان الشفق يلوح فى السماء عندما وصل القطار بيستريتز إلى جبال الكاربات. وكان الكونت دراكولا قد طلب من جوناثان التوجه إلى فندق جولدن كرون حيث ينتظر وصوله.

بعد أن ألقت العجوز صاحبة الفندق التحية على جوناثان لدى الباب، أعطته – وقد بدأ عليهاالتوتر – رسالة قصيرة جاء فيها:

مرحبًا بك يا صديقى. أنتظرك فى شوق. أنعَمْ بنوم هنئ الليلة، فغدًا تكون آخر محطات رحلتك، بالعربة، إلى قلعتى. أثق بأنك ستستمتع بالإقامة فى أرضى الجميلة.

صديقك دراكولا

سأل جوناثان المرأة العجوز: «هل تعرفين الكونت؟ هلاَّ أخبرتنى أى شئ عن القلعة؟» ولكن بدلاً من الرد عليه،

تعـوَّذت المـرأة برسـم علامـة الصليـب علـى جسـدها وسـلمته مفتـاح الغرفـة وانصرفـت مسـرعة.

لكـن فـى وقـت باكـر مـن صبـاح اليـوم التالـي، طرقـت المـرأة البـاب فـى اضطـراب وصاحـت: « أيهـا الشـاب، ألا يجـب عليـك الرحيـل؟»

أجـاب جوناثـان بـأن عليـه الذهـاب بالفعـل لإنهـاء عمـل مهـمٍّ مـع الكونـت.

سـألته: «لكـن ألا تـدرك إلى أيـن أنـت ذاهـب؟ وفـى أى يـوم؟» ولم تنتظـر الـرد وأردفـت: «إنهـا ليلـة عيـد القديـس جـورج. عندمـا تنتصـف هـذه الليلـة، يسـود الشـر الموجـود فـى أرجـاء العـالم».

حـاول جوناثـان تهدئـة المـرأة العجـوز لكـن دون جـدوى. وأخـيرًا، أكَّـد مـرارًا وتكـرارًا أن عليـه إتمـام مهمتـه، وأنـه سيسـتأنف آخـر محطـة فـى رحلتـه كمـا هـو مخطـط تلـك الليلـة عـن طريـق عربـة سـكة حديـد.

قالـت المـرأة: «حسـنًا، إذا كان الأمـر كذلـك، فعلـى الأقـل خـذ هـذا رأفـةً بأمـك المسـكينة». خلعـت المـرأة صليبًـا عـن رقبتهـا ومـدت يدهـا ووضعتـه حـول رقبتـه، ومـا أثـار فضولـه هـو أنهـا بعـد وضـع الصليـب، وضعـت فـى يـده رأسًـا مـن الثـوم وشـدَّت عليـه.

بعدما انصرفت، خلع جوناثان الصليب ونظر إليه، فكَّر فى إلقائه هو والثوم؛ فباعتباره أحد أبناء الكنيسة الإنجليزية المخلصين. لم يكن يوافق على هذه الأمور أو يؤمن بها، لكن شعورًا غريبًا وملحًّا بالقلق جعله يعيد وضع الصليب حول رقبته.

عندما وصلت العربة فى تلك الليلة، تجمع حشد صغير حولها، مر جوناثان حاملاً حقائبه من أمام سائق العربة والعجوز صاحبة الفندق وبعض نزلاء الفندق الآخرين، كان الجميع يحدِّقون به ويتحدثون عنه.

كانوا يرددون بهمسات مرتعدة مشفقة الكلمة ذاتها: «فور لوك». عندما فتح جوناثان قاموسه الصغير للبحث عن معنى الكلمة – فور أن جلس فى العربة – وجد أنها كانت تعنى إما «مستذئبًا» أو «مصاص دماء» باللغة الصربية.

وبينما كانت العربة تسير مبتعدة، لاحظ جوناثان العديد من الأشخاص بين الحشد المتزايد يتعوذون برسم علامة الصليب. فى دفتر يومياته الصغير الذى كان يدوِّن فيه بإيجاز كل شئ يحدث له، كتب جوناثان ملاحظة ليتذكر أن يسأل الكونت دراكولا عن الخرافات العجيبة التتى كان يعتقد بها أهل المدينة. حتى إنه تساءل: لماذا يرمقه رفاقه فى العربة بنظرات حزينة؟

فى الطريق، كانت ترتفع الجبال والغابات من حولهم بألوانها الخلابة التى تنوعت بين الأزرق الداكن والأرجوانى

والأخضر. ولكن عندما بدأ الأفق يبتلع الشمس، ظهرت ظلال مظلمة وسحب كالأشباح، وحلت محلَّ تلك الألوان الشبيهة بقوس قزح. وكلما اشتد الليل ظلمةً ازداد السائق والركاب الآخرون اضطرابًا.

سأل أحد الركاب السائق بنبرة حادة: «ألا يسعك الإسراع قليلاًّ؟»

أجاب السائق بصوت خافت مضطرب: »إنى أحاول!« فى الواقع، مع أنهم قطعوا مسافة كبيرة فى وقت قصير، فقد كان السائق بالفعل يسابق الزمن؛ حتى إن جوناثان كان يتشبَّت بالعربة بأضافره وهى تتأرجح بشدة فوق زنبرك العجلات.

لدى اقتراب العربة من بورجو باص، ضرب رعد شديد فى السماء. أمال السائق والركاب الآخرون رءوسهم عند حافة العربة محدِّقين فى الظلام كأنما يبحثون عن شئ.

ونظر جوناثان هو الآخر لكن لم يكن هناك أى شئ أو شخص.

صاح السائق: «هذا سئ! إن العربة التى كان من المفترض أن تستقبلك لتقلَّك إلى القلعة بالأعلى ليست هنا. ولا يمكنك الانتظار هنا فى الظلام وحدك، حيث يعُّج المكان بالذئاب وعلى مواصلة طريقى. ستضطر إلى المجئ معنا، ويمكننى إحضارك هنا ثانيةً فى وقت لاحق».

تمتم الـركاب الآخـرون: «يـا للأسـف!» ولكـن لمـاذا بـدا الجميـع مبتهجـين إلى هـذا الحـد؟

سمعنـا صوتًّـا أجـش يقـول: «فيـم العجلـة ؟» كانـت هنـاك عربـة تجرهـا أربعـة خيـول حالكـة السـواد تسـير بمحـاذاة عربتنـا. قـال جوناثـان محدِّثًـا نفسـه: «هـذا مسـاعد الكونـت بـلا شـك». كانـت أغلـب ملامـح وجـه الرجـل مختبئـة تحـت قبعـة سـوداء كبـيرة، لكـن جوناثـان رأى عينـين متوهِّجتين وكأن لونهمـا أحمـر. قـال المسـاعد للسـائق: «لقـد وصلتـم مبكـرًا جـدًّا هـذه الليلـة لكنـى توقعـت حيلتـك هـذه. والآن أعطنـى أمتعـة السـيد».

obeikandl.com

الفصل الثانى

جوناثان يصل القلعة

بينما استمر الركاب فى العوذ برسم علامة الصليب على أجسادهم، ودَّعهم جوناثان وتسلق العربة. كان الليل قد انتصف تقريبًا. تذكر جوناثان كلمات السيدة العجوز. فلم يمالك إلا أن يرتعد لذكرها بالرغم من الدثار والشاى الساخن اللذين قدمهما له مساعد الكونت. بل زاد ارتعاده عندما سمع عواء الذئاب يدوى من بعيد. كانت الخيول ترتعد هى الأخرى، أو على الأقل كان صهيلها ينمُّ عن خوفها.

وفى تلك اللحظة انقشعت سحابة كانت تحجب ضوء القمر، ليغرق المشهد فى ضوء أزرق شاحب خافت. كانت تحيط بهم من كل مكان ذئاب بمخالب بيضاء وألسنة حمراء وأطراف طويلة وشعر أشعث.

وثب جوناثان من مكانه، كم كان مُريعًا أن يعرف أن هذه المخلوقات ظلت على مقربة منه طوال الوقت، لكن

obeikandl.com

مساعد الكونت اكتفى برفع ذراعيه والهمس بشئ للذئاب، فتراجعت على الفور. بعدها، حجبت سحابة ضوء القمر، ومرة أخرى أصبحوا يسيرون فى ظلام دامس.

قطعت العربة المسافة المتبقية مرتقيةً الجبل شديد الانحدار لتصل القلعة التى رآها جوناثان حينها وكانت حطام قلعة مقفرة. عبر الجمع خلال مدخل مقنطر، ودخلوا بهوًا مظلمًا ثم توقفوا.

ترك السائق جوناثان وأمتعته عند الباب الأمامى للقلعة، ودون أن يقول كلمة أخرى أو يعطى أى توجيهات، انسلَّ خارجًا، واختفت العربة فى الظلام.

كان الباب الأمامى الضخم مصنوعًا من الخشب، وعليه نقوش دقيقة التفاصيل، لكن جوناثان لم يجد به أى مطرقة أو جرس. عندما تراجع خطوة للخلف ونظر لأعلى نحو نوافذ القلعة الشاهقة المظلمة، لم يرَ أى شعاع ضوء.

فى تلك اللحظة، سمع من خلف الباب صوت خطوات تقترب، كانت الخطوات تتبعها أصوات تحريك سلاسل رنانة ومزلاجات ضخمة، انفتح الباب وكان يقف عنده رجل عجوز طويل القامة يرتدى حلة سوداء بالكامل بعينين لامعتين كانتا تبدوان مألوفتين على نحو غريب، كان له حاجبان كثيفان وبشرة شاحبة وشفتان حمراوان فاقع لونهما. وعندما ابتسم. كشفت تلك الشفاه الحمراء عن أسنان عاجية حادة.

قـال الرجـل بلهجـة إنجليزيـة متمكنـة ولكـن مفخمـة: «مرحبًـا بـك فـى قلعتـى. أنـا الكونـت دراكـولا». ومـد يـده يصافـح جوناثـان.

أخـذ الكونـت حقائـب جوناثـان وأرشـده إلى الطريـق حيـث سـارا وسـط ممـرات مظلمـة طويلـة وصعـدا العديـد مـن السلالم الحجريـة الملتفَّـة. وأثنـاء سـيرهما تسـاءل جوناثـان: «أى مغامـرة مريعـة سـتكون هـذه؟» ولكـن عندمـا فتـح الكونـت بـاب الغرفـة التـى مـن المفـترض أن يمكـث بهـا جوناثـان، شـعر جوناثـان بشـئ مـن الطمأنينـة. رأى هنـاك نـارًا متوهجـة ودافئـة تتوسـط الغرفـة وعشـاءً طيبًّـا قـد بُسـط لـه علـى طاولـة قريبـة.

قـال جوناثـان يطمئـن نفسـه: «كان غبـاءً منـى أن أشـعر بالخـوف، لقـد سمحـت لشـكوك أهـل المدينـة أن تؤثـر فـى نفسـي». وعلـى كل حـال، لقـد كان محرفًـا جـاء يـؤدى مهمتـه. لكنـه كان أيضًـا يتضـوَّر جوعًـا.

سـأل جوناثـان الكونـت وقـد رأى أن مـكان الطعـام أُعـد لشـخص واحـد: «ألـن تتنـاول العشـاء معـي؟»

أجـاب الكونـت: «لا، فأنـا لا.. أقصـد أنـى قـد أكلـت بالفعـل».

لكـن الكونـت مكـث برفقـة جوناثـان وهـو يتنـاول طعامـه، وطـرح عليـه وابـلاً مـن الأسـئلة.

سأله مثلاً : «لو أن سفينة دخلت ميناءً إنجليزيًّا، فهل يمكنني تكليف شخص بالذهاب وتلقى شحنة ونقلها إلى المدينة؟»

أجاب جوناثان: «بالطبع، يمكن لشركتى أن ترتب لهذا نيابة عنك».

سأله الكونت: «وماذا لو أردت الترتيب هذا بنفسي، اعذرني، فأنا أثق فى أنك ستتفهَّم أنه على المرء أحيانًا أن يدبر شئونه الخاصة، وألا يفشى لأحد بكل تفاصيل عمله».

أعطى جوناثان الكونت أسماء الشركات التى يمكن أن تتولى القيام بمثل هذه الأمور.

ومع دخول أول شعاع خافت لضوء الصباح من نافذة غرفة جوناثان، هبَّ الكونت واقفًا ودفع مقعده للخلف. وفى مكان ما فى الوادى أسفل القلعة كانت الذئاب تعوى من بعيد.

ارتعد جوناثان وقد استحضر صورة المخلوقات المرعبة التى كانت تقف على طول طريق العربة. ولكن الكونت ابتسم، وقال فى لهفة: «استمع إليهم، إنهم أبناء الليل».

زاد ارتعاد جوناثان، ليس لأنه سمع هذا التعليق الغريب فحسب، ولكن عندما رأى شيئًا آخر لم يلحظه إلا فى ذلك الوقت؛ يدى الكونت، يغطيهما شعر كثيف غريب. وأظافرهما طويلة مدبَّبة الأطراف وكأنها مخالب.

لكن جوناثان كان يأمل أن تتضح الأمور فى الصباح.

الفصل الثالث

جوناثان يعلم أنه سجين

نام جوناثان حتى وقت متأخر فى اليوم التالى. وعندما استيقظ لم يجد الكونت. ومع وجبة شهية أخرى أعدت ليأكلها جوناثان بمفرده، ترك الكونت رسالة قصيرة دعاه فيها إلى التجول أينما شاء فى أرجاء القلعة باستثناء تلك الغرف الى كانت أبوابها مقفلة.

ونهاه فى الرسالة نهيًا غريبًا شديد اللهجة: «وإياك أن يغشاك النعاس فى أى مكان آخر بالقلعة غير غرفتك!»

قضى جوناثان أغلب ساعات اليوم فى الترتيب لشراء عقار الكونت. ولكن عندما شعر بالحاجة إلى استراحة، قرر أن يستكشف المكان قليلاً. كان يرى أن القلعة أشبه بمتحف حافل بالتحف والروائع الفنية وغيرها من الأشياء الجديرة بالاقتناء. كان كل شئ يتّسم بأعلى جودة، ويبدو أن عمره مئات السنين.

obeikandl.com

ولكن فى كل الجولات التى قام بها جوناثان، لم ير شيئين: أولهما: أشخاص آخرون. تساءل: «كيف لا يستعين الكونت بأى شخص فى هذه القلعة الكبيرة ؟» وثانى شئ لاحظ غيابه كان المرايا، لم تكن موجودة حتى فى الحمامات. لم يكن الرجل مغرورًا – للعلم – ولكن المرء يحتاج أحيانًا إلى مرآة إذا أراد أن يحلق مثلاً. ومن حسن الحظ أن جوناثان كان قد أحضر مرآته الخاصة. كانت قطعة صغيرة بين مجموعة أدوات الزينة التى يأخذها فى سفره.

عاد الكونت إلى المنزل ذلك المساء بعد حلول الظلام، واستمرَّ نظام الحياة على المنوال نفسه، لم يأكل الكونت قطُّ، مدعيًا دائمًا أنه سبق أن تناول طعامه، وبدلاً من الطعام، كان يكتفى بالجلوس مع جوناثان لمناقشة الأوراق التى أعدها ذلك اليوم ويطرح عليه المزيد من الأسئلة عن المنزل الذى كان يشتريه فى لندن.

كان جوناثان قد قدم عرض شراء المنزل نيابة عن الكونت مع أنه لم يدرك حينها كيف يمكن لأى شخص أن يرغب فى شراء عقار كهذا. كان عقار كارفاكس بناءً عتيقًا كئيبًا ملحقًا به كنيسة صغيرة قديمة ظلت مهجورة لسنين. أما الآن بعد أن التقى الكونت ورأى منزله الحالى. فقد بات يدرك أن المنزل الجديد سيكون ملائمًا تمامًا. خطر لجوناثان أن السبب فى هذا ربما كان أصوله فى ترانسلفانيا، ولكن الكونت كان يبدو وكأنما خُلق ليعيش فى الظل والظلام.

كل ليلـة كان الكونـت يُبقـى جوناثـان مسـتيقظًا ويتحـدث حـى طلـوع الفجـر. كان أمـرًا غريبًـا فـى البدايـة، لكـن جوناثـان سـرعان مـا اعتـاد ذلـك. قـال لنفسـه إن بعـض النـاس علـى كل حـال تكـون طبيعتهـم ليليـة، وهـو فـى مهمـة، وعليـه أن يتكيـف مـع نظـام مواعيـد عميلـه.

كل يـوم كان جوناثـان يصحـو متأخـرًا ويسـتحم ويسـتخدم مرآتـه الصغـيرة فـى الحلاقـة، ويتنـاول إفطـارًا هادئًـا بمفـرده ثـم يعكـف علـى أوراقـه. وكان مـن وقـت لآخـر يكتـب فـى دفـتر يومياتـه الصغير الـذى أخفـاه – بحكـم عادتـه منذ نعومـه أظافره – علـى جسـده، كان أحيانًـا يراسـل مديـره السـيد هوكينـز أو خطيبتـه مينـا، لكنـه لم يجـرؤ علـى كتابـة أى شـئ شـخصى للغايـة، وبالطبـع لم يكتـب باللغـة الرمزيـة المختصـرة التـى كانـت مينـا تفهمهـا. كان السـبب فـى هـذا هـو أن المظاريـف القليلـة التـى أعطاهـا لـه الكونـت لاسـتخدامه الشـخصى كانـت رقيقـة للغايـة، حتـى إن أى شـخص كان يسـتطيع قـراءة مـا كتـب علـى الـورق بداخلهـا.

رأى جوناثـان أن الكتابـة بلغـة الرمـوز سـتكون سـلوكًا معيبًـا أو مريبًـا تمامًـا كالتحـدث بلغـة أجنبيـة أمـام شـخص لا يفهمهـا. كان الروتـين مملًّا، ولكـن الهـدف مـن العمـل ليـس المتعـة بالضـرورة، إضافّـة إلى ذلـك. قريبًـا سـتحدث أشـياء تجعلـه يشـتاق إلى الحيـاة المملـة مـرة أخـرى.

فـى البدايـة ذكـر الكونـت فـى حديثـه أن علـى جوناثـان المكـوث فـى القلعـة مدة شـهر آخر علـى الأقل، فعبـس جوناثان. كان مـن الغريـب أن يسـتمر هـذا المشـروع كل ذلـك الوقـت.

عندمـا رأى الكونـت عبـوس جوناثـان، عبـس هـو الآخـر، قـال الكونـت: «هـذه هـى رغبـتي، ولا مجـال للرفـض، لقـد أكد لى مديـرك أنـه سـيلبى رغباتـي، فهـل سـتكون هنـاك مشـكلة؟»

حـاول جوناثـان أن يقسـر ملامـح وجهـه علـى الانفـراج، وأجـاب: «بالطبـع لا، سـأمكث مـا دمـت محتاجًـا إلـيَّ».

ومـا حـدث بعـد ذلـك زاد جوناثـان ضيقًـا. جافـاه النـوم ذات ليلـة، فعلـق مـرآة الحلاقـة علـى الجـدار، وكان يهـم بالحلاقـة عندمـا سمـع الكونـت خلفـه مباشـرة يقـول: «مرحبًـا». وثـب جوناثـان مـن مكانـه، لم يكـن فزعـه بسـبب مباغتـة الكونـت لـه بقـدر مـا كان بسـبب عـدم ظهـور انعـكاس الكونـت فـى المـرآة. أى سـحر غريـب هـذا؟

مـا إن لاحـظ الكونـت وجـود المـرآة وغيـاب انعكاسـه فيهـا، حتـى اتقـدت عينـاه غضبًـا، وأمسـك برقبـة جوناثـان فجـأة، لكـن عندمـا لمسـت يـداه حبـات المسـبحة التـى كان بهـا الصليـب حـول رقبـة جوناثـان ، تراجـع الكونـت فـى عنـف، غـير أنـه لم يتوقـف عنـد ذلـك الحـد، ففتـح النافـذة المجـاورة وألقـى بالمـرآة بعيـدًا وهـو يتمتـم بشـئ عـن الغـرور، وفـى مـكان سـحيق بالـوادى تهشـمت المـرآة إلى ألـف قطعـة.

قال الكونت: «أعتذر عن هذا بشدة، لكن المرايا أمر غير محبَّذ هنا، فمن المرجح أن تنكسر وتجرح أحدًا، والجروح أمر خطير فى الريف، قد تعرضك لخطر العدوى كما تعلم».

وفى آخر المطاف، كان جوناثان يستكشف المنزل ذات يوم ليعرف عنه المزيد أثناء وجود الكونت بالخارج، وأدرك أن كل الأبواب المؤدية للخارج مقفلة، ولم يكن هناك سبيل للخروج من القلعة سوى القفز من إحدى النوافذ ليسقط فى الوادى السحيق أسفل القلعة ويلحق بمرآته المسكينة.

لقد أدرك أمرًا مريعًا؛ كانت القلعة سجنًّا، وكان هو سجينًا بداخلها! كان أهل المدينة على حق، تساءل جوناثان: أى وحش هذا الذى لا يظهر فى المرآة؟ وأدرك كم كان أهل المدينة هؤلاء رائعين. وحمد الله لأنه على الأقل قبل صلبانهم وثومهم! ليته أيضًا قبل نصيحتهم الحكيمة السديدة.

الفصل الرابع

السيدات والسحلية

هلع جوناثان فى البداية وهو يشعر كأنه فأر وقع فى مصيدة.

غير أنه بعد بُرهة حاول أن يهدئ من روع نفسه، فقد علم أن عليه الحفاظ على رباطة جأشه ليضع خطة للهروب، وأهم شئ ألا يُشعر الكونت بأنه فهم الأمر. لقد كان سجينًا مضطرًّا للتظاهر بأنه ضيف، ولكن كان عليه أن يتوخَّى الحذر طيلة الوقت ويجمع المعلومات ويحاول وضع خطة.

كل ليلة، أثناء عشائه وحده، كان يحمل نفسه على مناقشة شئون العمل بهدوء مع الكونت، وفى النهار، أثناء غياب الكونت بالخارج، كان يستكشف خبايا القلعة ليعرف المزيد محاولًا أن يكشف أسرارها الشريرة.

ذات يوم، قبيل غروب الشمس، وصل جوناثان إلى باب أعلى الدرج، كان يبدو مقفلًا، لكنه انفتح بعدما دفعه دفعًا يسيرًا، وما إن دخل الغرفة، حتى نظر حوله، واعتقد

obeikandi.com

أن ذلـك الجـزء مـن القلعـة كانـت تسـكنه نسـاء القلعـة فيمـا مضـى؛ لأن الأثـاث كان يتسـم بلمسـات أنثويـة أكثـر مـن الغـرف الأخـرى التـى رآهـا.

عندمـا غـاص جسـده علـى بعـض الوسـائد الوثـيرة، اسـتطاع عمليًّـا أن يتخيـل السـيدات اللاتـى عشـن هنـا مـن قبـل، جالسـات علـى الأريكـة نفسـها، يكتـبن رسـائل غراميـة، وبينما كان عقلـه يمـوج بالأفـكار، بـدأ يشـعر برغبـة فـى النعـاس، وبالرغـم مـن تحذيـر الكونـت، قـرر أن ينـام هنـا، ليلـة واحـدة فقـط، سـتكون لـه مهربًـا ممتعًـا مـن زنزانتـه.

هـل كان لا يـزال نائمًـا ؟ لم يكـن يعـرف؛ كل مـا عرفـه هـو أنـه لم يكـن بمفـرده، فـى ضـوء القمـر ظهـرت أمامـه ثـلاث شـابات بـدا أنهـن أخـوات، كّـن جميعًـا غايـة فـى الجمـال، بشـفاه حمـراء كالياقـوت وأسـنان بيضـاء ناصعـة، يسـبحن حوله كالضبـاب.

قالـت إحداهـن وهـى تميـل نحـوه مقتربـةً شـيئًا فشـيئًا: «أنــت أولاً».

انتبه جوناثان وقال فى نفسه: «ستعضُّ رقبتي!»

وقبـل أن يتسـنى لـه إبـداء أى رد فعـل، ظهـر الكونـت فجـأة مـن حيـث لا يـدري، وقـد ثـار غضبًـا، وتطايـر الشـرر مـن عينيـه، فجـذب المـرأة التـى كانـت تميـل نحـو نوناثـان مـن رقبتهـا ورماهـا علـى الجانـب كأنهـا دميـة مـن خـرق باليـة.

قال الكونت للأخوات الثلاث بنبرة غاضبة مكتومة: «كيف تجرؤن؟» كان يتحدث بصوت خافت، لكن جوناثان سمعه يقول: «لقد قلت لكن، سيكون لكن عندما أنتهي منه». وربما على سبيل السلوان، ألقى الكونت للسيدات حقيبة كبيرة بها شئ يتحرك التقطنها بسرعة وهربن وهن يقهقهن.

تساءل جوناثان محدثًا نفسه في فزع: «ماذا كان في تلك الحقيقة؟ ربما كان قطة أو كلبًا؟» وأرعبته الفكرة.

ما إن عاد جوناثان إلى غرفته، حتى شعر براحة كبيرة، ولكن عندما كان يفتح النافذة ليستنشق بعض الهواء، رأى ما زاده رعبًا. خرج الكونت من نافذة غرفته الخاصة ورأسه تتدلى لأسفل متسلقًا الجدار وأصابع يديه وقدميه متشبثة بالأحجار كالسحلية! رجع جوناثان إلى الوراء بسرعة قبل أن يراه الكونت.

لكن في الليلة التالية، تساءل: هل رآه الكونت؟ لأنه أوكل إليه تلك الليلة مهمة جديدة غريبة.

قال الكونت: «ستكتب ثلاثة خطابات، وسأرسلها بالبريد نيابة عنك، ستقول في أولها إن عملك هنا أوشك على الانتهاء، وإنك ستبدأ في رحلة العودة إلى موطنك في غضون بضعة أيام، وفي الثاني، ستقول إنك مغادر في الصباح التالي، وفي الثالث، ستقول إنك غادرت القلعة بالفعل ووصلت مدينة بيستريتز»، وأومأ الكونت

برأسه وأضاف: «نعم، لا يؤخذ البريد بانتظام، ونظرًا لمدى انشغالك، سيكون أفضل وأنسب شئ تفعله هو أن تكتب رسائلك مقدمًا».

وافق جوناثان في خوف، لماذا يطلب منه الكونت كتابة هذه الرسائل إذا لم يكن يخطط لقتله، واختلاق قصة يخفى بها آثار جريمته؟ وبالطبع لم يستطع أن يُظهر خوفه للكونت: فسأله ببساطة: «ما التواريخ التى سأضعها فى الخطابات؟»

أجاب الكونت: « الثانى عشر، والتاسع عشر، والتاسع والعشرون من يونيو».

خطر لجوناثان أن ذلك اليوم كان يوافق التاسع عشر من شهر مايو، لقد بات يعرف ما تبقى من عمره! ليكن الله فى عونه ! فكَّر على الفور فى أن يكتب شيئًا آخر فى الخطابات الثلاثة ويختمها بسرعة قبل أن يراها الكونت، ولكنه غيَّر رأيه، حمدًا لله أنه فعل ذلك، لأنه إضافَّة إلى أن الكونت أعطاه أظرفًا شفافة مرة أخرى، فقد فتح الأختام بالفعل ليتأكد من محتوى الرسائل.

لكن جوناثان فى الوقت نفسه اعترضه حظ سيئ عندما رأى من نافذته بعض الغجر بالخارج يبحثون عن عمل، قرر أن يكتب خطابًا إضافيًّا إلى مينا بلغة الرموز ويحاول إخراجه للغجر ليرسلوه بالبريد، وقرر أن يلقيه بالخارج

ومعـه عملـة ذهبيـة، لم يكـن سـيخبر مينـا بطبيعـة موقفـه بالتفصيـل، وإلا ماتـت مـن الرعـب، ولكنـه كان سـيخبرها مـا يكفـى لعلهـا تسـتطيع مسـاعدته، ولـو بإرسـال السـيد هوكينـز.

بعـد أن لفـت جوناثـان انتبـاه أحـد الغجـر، ألقـى إليـه الخطـاب والعملـة الذهبيـة، مشـيرًا بيديـه إلى أنـه يحتـاج منـه إرسـال ذلـك الخطـاب بالبريـد، بـدا أن الرجـل الغجـرى فهـم مقصـده ووافـق عليـه، فتنفـس جوناثـان الصعـداء.

غـير أنـه فـى مسـاء اليـوم التـالى، دخـل الكونـت إلى الغرفـة، وجلـس إلى جـوار جوناثـان، وأعطـاه الخطـاب الـذى كان قـد كتبـه إلى مينـا، وكان الخطـاب مقـروءًا. أمـا العملـة المعدنيـة، فلـم تكـن موجـودة بالتأكيـد.

قـال الكونـت: «أحـد الغجـر بالخـارج أعطانـى هـذا الخطـاب، لقـد وجـدوه علـى الأرض بالخـارج وظنـوا أنـه سـقط منـى خطـأً، ولكـن يبـد أن هـذا كان خطـأك أنـت».

عندمـا نظـر الكونـت إلى الخطـاب ورأى الرمـوز الغريبـة المقتضبـة التـى كُتـب بهـا، استشـاط غضبًـا، وتطايـر الشـرر مـن عينيـه، ثـم التفـت فجـأة وألقـى الخطـاب فـى النـار.

قـال: «لا أظنـك سـتمانع فعلـى هـذا، فبالتأكيد حـدث خطأ، ولم يكـن هـذا بالفعـل خطابـك الـذى كتبتـه بلغـة اخترعتهـا».
ثـم اسـتدار وغـادر الغرفـة.

فـى اليـوم التـالى، عندمـا عـاد جوناثـان إلى غرفتـه بعـد جولة خارجهـا، وجـد أن كل الأوراق والأقـلام قـد اختفـت واختفـت معهـا نقـوده وشـيكاته، حتـى بذلتـه ومعطفـه.

حمـد جوناثـان الله لأنـه احتتفـظ بدفـتر يومياتـه علـى جسـده، وإلا كان الكونـت وجـده أيضًـا، لكـن الأمـر أصبح أمـرًا واقعًـا: لقـد صـار سـجينًا أكثـر عزلـة الآن!

obeikandl.com

الفصل الخامس

جوناثان يتفقد الكنيسة الصغيرة

فـى اليـوم التالـي، سمـع جوناثـان صـوت جلبـة خـارج نافذتـه، فأسـرع لينظـر، لم يـر غجـرًا هـذه المـرة، ولكنـه رأى بعـض السـلوفاكيين، كان اثنـان منهـم يرتديـان جلـود أغنـام قـذرة وأحذيـة عاليـة السـاق ويقـودان عربتـين كبيرتـين تجرهمـا ثمانيـة خيـول قويـة.

صـرخ جوناثـان نحـو الأسـفل بأعلـى مـا اسـتطاع حتـى بُـحَّ صوتـه، لكنهـم لم يرفعـوا رءوسـهم لينظـروا إليـه، رأى جوناثـان أن العربتـين كانتـا تحمـلان صناديـق مربعـة ضخمـة تشبه النعـوش، وقـد رُبـط بـكل منهـا حبـل غليـظ يُشـدّ منـه، أفـرغ السـلوفاكيون الصناديـق فـى سـاحة القلعـة بسـهولة، فعلـم جوناثـان أنهـا كانـت فارغـة، وبعـد إنـزال الصنـدوق الأخـير، ضـرب السـلوفاكيون الخيـول بأسـواطهم وانصرفـوا.

على مدار الأيام القليلة التالية أتى رجال آخرون، وقد استنتج جوناثان من واقع ما رآه أن الصناديق كانت توضع فى مكان عميق بقبو القلعة، فى كل أرجاء المنزل، كانت نبعث من القبو أصوات مكتومة لمجارف تحفر الأرض والصخور، ما الذى كان يجري؟

ذات ليلة، رأى جوناثان الكونت يخرج من نافذة حجرة نومه متسلقًا الجدار لأسفل كالسحلية مرة أخرى، ولكن المختلف هذه المرة أن الكونت كان يرتدى الملابس التى أخذت من غرفة جوناثان! أدرك جوناثان فى هلع أن الكونت أراد أن يظن الناس أنهم رأوا جوناثان نفسه، كدليل آخر يدعم الخطابات الزائفة، وكان يخشى من أن يُلام على أى شر يمكره الكونت فى المدينة.

فى وقت لاحق من تلك الليلة، استيقظ جوناثان على صوت بكاء مرير فى البهو بالأسفل. عندما اندفع لينظر من النافذة، رأى امرأة شعثاء تلهث من أثر البكاء والركض، عندما رأت وجه جوناثان مَطلا من النافذة، تقدمت المرأة نحوه وأشارت إليه صائحة: «أيها الوحش! أعد إلى كلبى! رجاءً! أتوسل إليك!»

قبل أن يجيبها جوناثان، سمع همس الكونت الغيظ القاسي، ينبعث من مكان ما فى الأعلى، ربما كان برج القلعة، وكأنما يستدعى شيئًا ما، راقب جوناثان المشهد فى

obeikandi.com

رعب وقد بدا أن الرد على نداء الكونت جاء من كل صوب وحدب، ففى كل أرجاء الوادي، كانت الذئاب تعوي، وفى غضون دقائق، اندفعت مجموعة منهم من المدخل الفسيح إلى البهو وكأن سدًّا مانعًا قد انهار.

أغمض جوناثان عينيه، لم يحتمل رؤية ذلك، لكنه لم يكن بحاجة إلى سد أذنيه لأن المرأة لم تصرخ، لم يكن هناك وقت، وبعد دقائق قليلة، تفرقت الذئاب بعيدًا، وهى تتحرك بهدوء وتلعق شفاهها.

كان اليوم التالى يوافق تاريخ آخر خطاب أجبر الكونت جوناثان على كتابته، لم يكن أمامه وقت طويل، وكان عليه التوصل إلى خطة بأسرع وقت!

أدرك جوناثان أنه لم تسبق له رؤية الكون فى ضوء النهار، هل يُحتمل أن السبب فى ذلك هو أن الكونت ينام عندما يستيقظ الآخرون ؟ ليته يتمكن من دخول غرفة الكونت! قطعًا سيجد هناك إجابات عن بعض أسئلته، ولكن كيف؟ كان الباب موصدًا دائمًا.

خطرت له فكرة. إذا كان الكونت قد خرج من نافذته. متسلقًا الجدار، فربما استطاع جوناثان أيضًا التسلق بالطريقة نفسها، والعثور على مفتاح الباب الأمامى فى مكان ما بالداخل، بالطبع لم يكن يستطيع القفز على الجدران كالسحلية، لكن كانت هناك نتوءات بالجدران الخارجية

للقلعـة، وأحجـار أخـرى ذات أحـرف حـادة، كلهـا كانـت تصلـح كزوايـا وصـدوع تسـع أصابـع الأقـدام البشـرية.

وفـى وقـت لاحـق مـن ذلـك اليـوم، وجـد نافـذة مفتوحـة فـى نفـس مسـتوى نافـذة الكونـت وبينهمـا إفريـز مشـترك، خـرج جوناثـان متسـلقًا الجـدار، وبينمـا كان يسـير ببـطء بجانـب واحـد مـن جسـده، نظـر إلى أسـفل، لكـن الارتفـاع الشـاهق روَّعـه كثـيرًا فوجَّـه نظـره إلى أعلـى بعـد ذلـك، ومـا إن وصـل نافـذة الكونـت وانسـلَّ داخـلاً، حتـى نظـر حولـه سـريعًا فـى خـوف يبحـث عـن الكونـت، لكـن الغرفـة كانـت خاويـة.

كانـت الغرفـة فـى الحقيقـة غـير مؤثَّثـة، ومغطـاة بالغبـار، وكأنهـا لم تُسـتخدم مـن قبـل، وفـى إحـدى زواياهـا، رأى كومـة مـن الذهـب مغطـاة بالغبـار أيضًـا، وكل شـئ كان يبـدو أنـه مضـى عليـه مئـات السـنين، وفـى أقصـى نهايـة الغرفـة، ضُـرب ببـاب غليـط مـن ورائـه سـلالم دائريـة تنحـدر بشـدة وتصـل إلى عمـق بعيـد تحـت سـطح الأرض. كتـم أنفاسـه محـاولاً أن يتمالـك نفسـه، ومضـى قدمًـا.

وبعـد أن نـزل إلى نهايـة الـدرج واجتـاز ممـرًّا آخـر حجريًّـا طويـلاً، وجـد نفسـه فـى كنيسـة قديمـة مهدَّمـة، كانـت الأرضيـة مـن الـتراب، ويبـدو أنهـا كانـت تُسـتخدم كمقـبرة. وهنـاك، كانـت تحيـط بـه التوابيـت التـى أحضرهـا السـلوفاكيون مـن كل جانـب. لكنهـا كانـت ممتلئـة آنـذاك بـتراب قـد اسـتُخرج مـن

الأرض حديثًـا.

وفــى أحــد التوابيــت التــى كان عددهــا خمســين تابوتًــا (أحصاها جوناثـان بسـرعة)، وفـوق كومـة مـن الـتراب المنـدَّى، كان يرقـد الكونـت! لم يعـرف جوناثـان هـل كان نائمًـا أم ميتًـا. كانـت عينـاه مفتوحتـين وشـفتاه حمراويـن كعادتهمـا، لكنـه لم يُصـدر أى حركـة أو نبـض أو نَفَـس، ولم يكـن قلبـه يـدق.

وبعـد أن ألقـى جوناثـان نظـرة خاطفـة أخـيرة علـى عينـى الكونـت الباردتـين كالأمـوات، اسـتدار وهـرع ليصعـد الـدرج، فخــرج مــن نافــذة الكونــت، وســار علــى الإفريــز بجانــب جسـمه، ثـم دخـل مـرة أخـرى عـبر النافـذة التـى خـرج منهـا.

عــاد إلى غرفتــه وألقــى بجســده علــى الفــراش وهــو يلهــث ويحــاول التفكـير. غـدًا يحـين موعـد آخـر خطـاب. فمـاذا يفعل؟

عندمـا رأى جوناثـان الكونـت فـى وقـت لاحـق ذلـك المسـاء، بعـد أن اسـتيقظ مـن قيلولتـه فـى التابـوت، تجـرَّأ وسـأله: «هـل سـأغادر غدًا؟»

أجاب الكونت: «نعم يا صديقي، غدًا نفترق».

سأله جوناثان: «لماذا لا يسعنى الرحيل الليلة؟»

اندهـش الكونـت ورد بـأن قائـد العربـة والخيـول خرجـوا فــى مهمــة.

قال جوناثان: «يسعدنى أن أذهب سيرًا». لم يعد يكترث لظهور خوفه من عدمه.

لقد أراد الهروب، وكان عليه ذلك!

سأله الكونت: «وماذا عن أمتعتك؟»

أجاب: «يمكننى الإرسال لأخذها فى وقت لاحق».

وقف الكونت وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية، وقال: « بالطبع لم أكن لأبقيك ساعة واحدة فى منزلى ضد رغبتك. إذا أردت أن ترحل الليلة، فبالطبع لك هذا».

التقط الكونت مصباحًا فى انحناءة وجيهة وأضاء الدرج لجوناثان موصلاً إياه إلى الباب الأمامى، اطمأن جوناثان كثيرًا حتى إنه شعر أن بوسعه قطع الطريق إلى لندن ركضًا، إذا لزم الأمر..

لكن ما إن اقربا من الباب، حتى بدأت أصوات مألوفة تتعالى، لقد كان عواء الذئاب القادم من الوديان الموجودة أسفل القلعة يتعالى شيئًا فشيئًا، تمامًا كما حدث تلك الليلة عندما أتت المرأة تبحث عن حيوانها المسروق.

عندما وضع الكونت يده على مقبض الباب الضخم وجذبه، رأى جوناثان أن الذئاب كانت بالفعل تقف عند الباب الأمامي، وهى تثب وتلعق بألسنتها، فى انتظار أن يخطو خطوة للخارج، لم يحُل بين وبين مصيره سوى جسد الكونت.

صرخ جوناثان: «أغلق الباب، سأنتظر حتى الصباح!»

قـال الكونـت فـى هـدوء: «كمـا تشـاء، كل مـا أريـده هـو إرضـاء ضيـوفي».

اضطـرب تنفس جوناثـان منـذ ذلـك الحـين ولم تهـدأ أنفاسـه حتـى صاح الديـك معلنًـا طلـوع الصبـاح التـالى. ركـض مباشرةً إلى البـاب الأمامـى وحـاول فتحـه، لكـن البـاب لم يتحـرك، بـدأ اليـأس يتملكـه وهـو يواصـل محاولاتـه لجـذب البـاب، لكـن البـاب كان موصدًا مـرة أخـرى مـن الداخـل بمفتـاح، كان ذلـك المفتـاح غالبـاً يحملـه الكونـت علـى جسـده.

التفـت جوناثـان وقـد علـم أن عليـه العـودة إلى غرفـة الكونـت ومنهـا إلى القبـو ليجـد لنفسـه مهربًـا.

كان تابـوت الـتراب لا يـزال فـى مكانـه، لكـن الغطـاء كان موضوعًـا فوقـه وعليـه المسـامير غـير مثبتـة بـه، بـل موضوعـة فى انتظـار أن يقـوم شـخص بدقهـا، وعندمـا رفـع جوناثـان الغطـاء، رأى الكونـت، كان هنـاك شـئ مختلـف، حينهـا كان الوحـش النائـم يبـدو أصبـى مـن عمـره بسـنين، تحـول شـعره وشـاربه الأبيضـان إلى الرمـادى الداكـن، وتـوردت وجنتـاه وامتـلأت مـن بعـد شـحوبهما، وأخـيرًا كانـت شـفتاه أكثـر احمـرارًا مـن أى وقـت مضـى، ورأى حوناثـان عليهمـا آثـارًا طفيفـة للدمـاء، لقـد كان الكونـت يتجرعـه، وكان هـذا أُثـره عليـه.

عندما نظر جوناثان إلى الابتسامة الساخرة التى ارتسم على وجه الكونت النائم، أدرك أن هذا هو الكائن الذى كان يساعد فى نقله إلى لندن، حيث يمكن أن يعذب المدينة قرونًا قادمة ويخلق دائرة جديدة من أشباه الشياطين – كالنسوة الثلاث – ليفترسوا الضعفاء.

لم يكن ليسمح بهذا، وعندما نظر حوله، رأى جاروفًا استخدمه العمال حتمًا فى ملء التوابيت، رفعه جوناثان لأعلى ونزل به بأقصى قوته ليضرب وجه الكونت البغيض، لكن فى تلك اللحظة، تحركت رأس الكونت ووقع نظره على جوناثان وكأنه يحدق به، فارتبك جوناثان وأخطأت الضربة الموضع المنشود، لكنها أصابت جبهة الكونت بجرح بسيط.

لم يقو جوناثان على فعل ذلك، فعلى أى حال، لم يكن جوناثان نفسه وحشًا، وبعدها سمع صوتًا قادمًا من بعيد؛ أصواتًا عذبة تغرد بأغنية غجرية كانت تقترب، وعلا فوق صوت الأغنية صوت دواليب ثقيلة تتدحرج وقرع سياط، لقد عاد السلوفاكيون، وسرعان ما اقتربت الأصوات أكثر، وبدت كأنها صادرة من داخل المنزل، صعد جوناثان الدرج مسرعًا ليخرج من القبو، وانتظر بغرفة الكونت، التى كانت أيضًا مقفلة من الداخل، وقد قرر أن يهرع إلى الخارج لحظة فتح الباب المؤدى إلى الرواق.

لكن فجأة بدت الأصوات صادرة من القبو فى الكنيسة. أدرك جوناثان أنه حتمًا كان هناك مدخل آخر، حاول أن يركض مرة أخرى إلى قبو الكنيسة، ولكن فى تلك اللحظة هبت ريح صكت الباب المؤدى إلى الدرج الملتف بصوت مرتفع، وعندما حاول فتحه، وجده موصدًّا بإحكام.

كانت نبعث من القبو أصوات طرق، ووطء أقدام، وتحريك أشياء ثقيلة، كان ذلك صوت دق المسامير فى تابوت الكونت لإغلاقه وإخراج السلوفاكيين لذلك التابوت مع التوابيت الأخرى الممتلئة بالتراب من القلعة. وعندما ركض جوناثان ونظر من النافذة، رأى العربات محمَّلة عن آخرها، وقد بدأت تتحرك فى قافلة خارجةًّ من الفناء.

لقد فات الأوان، خرج الكونت فى طريقه إلى لندن، وتُرك جوناثان وحيدًا هنا فى القلعة مع تلك النسوة البشعات، لقد كان الأمر فوق احتماله، وكان عليه الخروج من ذلك المكان اللعين، الذى كان يسكنه الشيطان وذريته فى صورة بشر، سيهرب حتى وإن كلفه ذلك حياته، فتح جوناثان النافذة وبدأ يتسلق.

الفصل السادس

العاصفة تأتى بسفينة غريبة إلى ويتبى

كانت مينا موراى – خطيبة جوناثان – قلقة؛ فقد طال غيابه، ولم يراسلها سوى مرات قليلة، ولم تعتد هذا منه، ولم تألف أسلوبه الذى كتب به؛ حيث تحدث بجفاءورسمية وبلغة تقليدية بدلًا من اللغة المختصرة التى كان يستخدمها عادةً.

قالت لنفسها ربما كان مشغولًا فحسب، وحاولت أن تهدئ نفسها، إلى جانب أن خطاب جوناثان الأخير كان ينص بوضوح على أنه بخير وسيعود فى غضون أسبوع. لم تطق صبرًا حتى تعرف كل مغامراته فى ترانسلفانيا.

فى الوقت نفسه، ستنشغل مينا اليوم بزيارة مرحب بها من صديقتها المخلصة لوسى ويستيرنا، فقد تلقت لوسى مؤخرًا ثلاثة عروض زواج وليس عرضًا واحدًا، وكانت تتوق إلى إخبار مينا عن كل شئ.

obeikandl.com

كان أول عـرض مـن الدكتـور جـون سـيوارد، وهـو شـخص طيـب وذكـى يديـر مصحـة نفسـية صغـيرة فـى منـزل بالمدينـة التـى كان يعيـش بهـا أيضًـا، لم تكـن تحبه، لذا رفضـت عرضه.

والعـرض الثانـى كان مقدمًـا مـن أمريكـى لطيـف جـدًّا قـادم مـن تكسـاس ويُدعـى السـيد كوينسـى بـى موريـس، ربمـا كانـت شـخصيته المرحـة سـببًا فـى سـهولة تقبلـه للرفـض أكثـر مـن الدكتـور سـيوارد.

أمـا العـرض الثالـث فـكان مقدمًـا مـن السـيد أرثـر هولمـوود، وهـو صديـق للعائلـة منـذ زمـن بعيـد، طويـل القامـة، وسـيم، مجعَّـد الشعر، وفـى الحقيقـة هـو الذى عـرف الرجلـين الآخرين عليهـا، ولكـن هـو وحـده مـن فـاز بقلبهـا، وكان عرضـه هـو الوحيـد الـذى تسـتطيع قبولـه.

كانــت الشــابتان ســتذهبان فــى عطلــة صغـيرة للاحتفــال والتخطيـط للـزواج، وكانتـا سـتمكثان فى ويتبي، فـى قرية صغيرة تشـتهر بصيـد الحيتـان، بنـزل صغير يطلُّ علـى المينـاء والخليج.

كانـت ويتبـى مدينـة عتيقـة غائمـة وجميلـة، وعلـى ضفـاف الخليـج، كان جـزء مـن مقـبرة قديمـة فـوق جـرف قـد هبـط نحـو المـاء، فمالـت بعـض شـواهد القبـور، وكأنهـا حديقـة منحوتـات حزينـة، ولأن لوسـى كانـت شـخصية سـريعة التأثـر بطبيعتهـا إلى حـد مـا، شـعرت بانجـذاب خـاص نحـو المقـبرة القديمـة، جلسـت المرأتـان هنـاك سـاعات علـى أحـد الشـواهد التـى

نُحِّيَت جانبًا، وأحيانًا كانتا تجلسان فى صمت، قانعتين بالأفكار والكتب.

وفى أحيان أخرى، كانتا برفقة آخرين من أهل المدينة المثيرين الذين كانوا يلتقونهم من وقت لآخر، كان بعض هؤلاء الناس يقصّون حكايات خرافية، فمثلاً إذا سمعوا جرسًا يدق فإن هذا يعنى أن سفينة فُقدت فى البحر، وكان رجل عجوز يُدعى السيد سويلز يهزأ دائمًا من مثل هذه الأمور ويرفضها لأنها قصص أشباح سخيفة.

ولكن مع مرور أيام عطلتهما، وبدلاً من الاسترخاء، بدأت كلتا المرأتين تشعران بمزيد من التوتر، بدايةً، منذ وصول آخر خطابات جوناثان الثلاثة الغريبة المقتضبة والرسمية، لم تصل كلمة واحدة أخرى منه، والأدهى من ذلك أنه أخلف وعده ولم يعد إلى لندن حتى ذلك الوقت.

لوسى أيضًا كانت تصيب مينا بالتوتر، فقد رجعت إلى عادة السير أثناء نومها كما كانت تفعل فى طفولتها، كانت مينا تحاول أن تنام نومًا خفيفًا حتى تستطيع أن تستيقظ على صوت تجول صديقتها فى المكان وتُعيدها برفق إلى فراشها.

حتى الطقس بدا عليه الاضطراب، وتوقع الصيادون المحليون اقتراب حلول عاصفة، حتى سيد سويلز العجوز اعترف بهذا؛ فأشار إلى البحر ذات يوم وهو يرتجف وقال:

« تحمل الرياح معها صوت الموت ومظهره ومذاقه».

ربما كان السبب هو السفينة الغريبة التى لاحظ العديد من أهل المدينة وجودها عند أطراف المدينة مؤخرًا وهى تجوب حولها فى فضول كبير وتغير مسارها مع كل هبة ريح.

أصاب الصيادون؛ كانت العاصفة التى هبت فى النهاية على ويتبى من أشد العواصف التى شهدتها المدينة على الإطلاق، وفى اليوم الذى اكتسحت فيه العاصفة المدينة، كان مشهد غروب الشمس مشهدًا عظيمًا بمعنى الكلمة، وقد خرج أغلب أهل المدينة إلى المرتفعات ليشهدوا الألوان الرائعة، ولاحظ جميع الحاضرين أن السفينة الغريبة كانت لا تزال قرب الميناء فاتحة أشرعتها بالكامل ، مما كان يشكل خطرًا كبيرًا فى ظل الرياح المتسارعة.

بعد منتصف الليل بقليل، انبعث صوت غريب من عرض البحر، ودون إنذار، انفجرت السماء، وارتفعت الأمواج معلنة غضبها، فحولت البحر إلى وحش كاسر، غزت اليابسةَ كتلٌ كثيفة من الضباب، وتراقصت السحب البيضاء كالأشباح، وبينما كان الرعد يضرب والبرق يومض، كان أهل المدينة محتشدين وقد حبسوا أنفاسهم مترقِّبين وصول القوارب التى ما زالت فى البحر واحدًا تلو الآخر إلى الميناء بأمان ليبتهجوا بذلك.

وأخـيرًا، لم يبـقَ فـي البحـر سـوى السـفينة الغريبـة وقـد نشـرت أشـرعتها بالكامـل، كانـت تبـدو حينهـا معرضـة لخطر الابتعـاد عـن الميـنـاء تمامًـا والتحطـم فـوق الشـعاب الحـادة الواقعـة وراءهـا مباشـرة، وبعـد ذلـك، حدثـت معجـزة؛ فقـد تحـول مسـار الريـاح وسـيقت السـفينة نحـو الميـنـاء مندفعة بشـدة فـوق سـد رملـي، ولكـن دون أن يصيبهـا مكـروه.

عندمـا اقـترب أهـل المدينـة مـن السـفينة، كان أول مـا رأوه جثـة، رأسـها متـدٍّ، ويدهـا مربوطـة بالحبـال إلى دفـة توجيـه السـفينة، ولم يكـن علـى متنهـا أى كائـن حـى آخـر، لقـد كانـت السـفينة تقودهـا يـد ميتـة!

قـال واحـد مـن أهـل المدينـة: «مـا هـذا الـذى يمسـكه؟» قفـز أحدهـم فـوق ظهـر السـفينة لـيرى، لقـد كان صليبًـا، وكان أثـر ضغـط الصليـب علـى اليـد يـدل علـى أن القبطـان كان يقبـض عليـه بقـوة.

هلـع الجميـع عندمـا قفـز كلـب ضخـم مـن باطـن السـفينة إلى ظهرهـا فجـأة واخـترق الجماهـير واختفـى فـى الظـلام متجهًـا نحـو المقـبرة.

الفصل السابع

أكثر مرضى الدكتور سيوارد إثارة للفضول

بصفته طبيبًا، كان جون سيوارد يعلم أن أفضل علاج للقلب المنفطر هو العمل، نعم، كان هذا ما يجب عليه فعله: أن ينهمك فى العمل بالمصحَّة النفسية، وكان أحد المرضى مثيرًا للاهتمام بصفة خاصة تجعله الحالة المثالية التى تُلهى الطبيب.

كان اسم المريض آر إم رينفيلد، وكان أغرب المجانين حالًا، كان يتمتع بقوة بدنية كبيرة وتقلبات مزاجية حادة، تتراوح بين نوبات من الاكتئاب التام والإثارة الهائلة، كان أنانيًّا وكتومًّا، وكان يبدو أنه يخفى هدفًا غريبًا عزم الدكتور سيوارد على اكتشافه.

كانت السمة الصالحة الوحيدة فى رينفيلد - على ما بدا - حبه للحيوانات بما فيها المخلوقات الحقيرة مثل الذباب والعناكب، استدرج رينفيلد الكثير منها إلى غرفته

obeikandl.com

عـن طريـق النافـذة حتـى اضطـر دكتـور سـيوارد إلى وضـع حـد لهـذا.

قال الطبيب بلطف: «لابد أن تتخلص من هذه الحشرات».

ومـا يثـير الدهشـة أن رينفيلـد وافق. فى الواقـع، عندما طارت ذبابـة سمينـة جـدًّا حولهـم فـى تلـك اللحظـة، قـرر رينفيلـد أن يتخلـص منهـا فـى التَّـو واللحظـة، فأمسـك بهـا بـين إصبعيـه، وقبـل أن يتمكـن دكتـور سـيوارد مـن منعـه، أكل الحشـرة.

شـعر دكتـور سـيوارد بالاشمئـزاز، فنهـر رينفيلـد علـى مـا فعـل، لكـن رينفيلـد أجـاب بـأن الحشـرات كائنـات حيـة، وعندمـا يأكلهـا تمنحـه تلـك الحيـاة، وبعـد مـرور أيـام، رأى دكتـور سـيوارد أن رينفيلـد أوى حيوانـًا جديـدًا؛ عصفـورًا ممتلـئ الجسـم، فأشـفق الدكتـور عليـه، ربمـلا كانـت الحشـرات القليلة المتبقيـة هـى مـا اجتـذب ذلـك العصفـور، وبالطبـع أكلـه رينفيلـد هـو الآخـر، وجـزم الدكتـور بـأن رينفيلـد قـد تعـدى كل الحـدود عندمـا طلـب قطـة بعـد ذلـك.

أجاب دكتور سيوارد قائلًا: «هذا مرفوض بالطبع».

ذات ليلـة ذهـب دكتور سـيوارد لإجـراء محادثـة مـع رينفيلد، لكنـه لم يكـن فـى حالـة مزجيـة تسـمح لـه بالحديـث، كانـت تغمـره الإثـارة وكان مشـتتًا؛ فلـم يقـل سـوى: «أجـل، أخـيرًا، اقـترب السـيد، اقترب السـيد».

وفـى وقـت لاحـق مـن تلـك الليلـة، جـاء الموظـف المقيـم لإيقـاظ الدكتـور سـيوارد، لقـد هـرب رينفيلـد مـن نافذتـه بالمشفى. ارتـدى دكتـور سيوارد ملابسـه علـى الفـور، لقـد كان رينفيلـد أخطـر مـن أن يجـول فـى الأرجـاء حـرًّا.

مـا إن خـرج دكتـور سـيوارد، حتـى رأى رينفيلـد يتسـلق جـدارًا علـى مرمـى البصـر، ويركـض نحـو كارفاكـس الـذى كان عقـارًا قريبًـا منهـم، وبعـد أن عـبر دكتـور سـيوارد بنفسـه مـن فـوق الجـدار، وجـد رينفيلـد لـدى البـاب المـؤدى إلى ذلـك الجزء مـن المنـزل الـذى كان كنيسـة فـى يـوم مـن الأيـام. وعندمـا اقـترب الدكتـور، سمـع مـا يلـي: «أنـا هنـا يـا سـيدي، الآن وقـد أصبحـت قريبًـا، فأنـا أنتظـر أوامـرك».

لحقـه الموظـف، وتمكنَّـا معًـا مـن الإمسـاك برينفيلـد الـذى قاومهمـا كالنمـر، وكأنـه وحـش لا إنسـان، وفـى النهايـة تمكنـا مـن إعادتـه إلى المصحـة.

كان آخـر مـا سمعـاه قبـل أن يغلقـا بـاب الزنزانة: «سـأتحلى بالصـبر يـا سـيدي، فأنت قـادم!»

بعـد هروبـه، ظـل رينفيلـد فـى حالـة غريبـة، لقـد كان عنيفًا للغايـة طـوال النهـار، ثـم هادئًـا جـدًّا منـذ طلـوع القمـر حتـى شـروق الشـمس، وبعـد بضعـة أيـام، فـرَّ المريـض ثانيـةً راكضًـا مباشـرةً نحـو كارفاكـس مـرة أخـرى، وملقيًـا نفسـه علـى بـاب الكنيسـة مـرة أخـرى.

قـاوم رينفيلـد وهـم يمسـكونه، ولم يهـدأ إلا عندمـا رأى شـيئًا علـى مسـافة بعيـدة، وعندمـا التفـت دكتـور سـيوارد لـيرى مـاذا هنـاك، رأى سـفينة كبـيرة يرفـرف شـراعها فـى صمـت وغمـوض نحــو الغرب.

obeikandl.com

الفصل الثامن

لوسى تسير أثناء نومها إلى المقبرة

رحلت العاصفة عن ويبى بسرعة كما هبَّت عليها بسرعة، وكأنها حققت غرضها الوحيد.

اتَّضَح أن السفينة الغريبة كانت سفينة روسية تُدعى «ديميتر»، تحمل شحنة غريبة جدًّا؛ عددًا من التوابيت الخشبية الضخمة المملوءة بالتراب. وبعد ذلك ببضعة أيام، أتى موظفون لدى إحدى الشركات وقدموا أوراقًا تثبت أنهم استُؤجروا ليأخذوا التوابيت وينقلوها. فصرَّحت الشرطة لهم بنقلها.

فى جيب القبطان المتوفى، وجدت الشرطة زجاجة بها رسالة، كان القبطان كتب الرسالة قبيل وفاته، وحكى فيها عن طاقم ظلَّ أفراده يُفقدون واحدًا تلو الآخر. كان أحدهم قد أبلغ عن رؤية رجل طويل ونحيف وشاحب البشرة على متن المركب، ولم يكن ينتمى إلى الطاقم، لكن عندما بحثوا لم يجدوا أحدًا.

obeikandi.com

كانـت الرسـالة تتحـدث عـن تزايـد الضبـاب وتعطـل المحـركات واختفـاء المزيـد مـن الرجـال، وأخـيرًا، لم يتبَّـق سـوى القبطـان ورجـل آخـر؛ رجـل رومانـى لم يزعـم أنـه رأى الغريـب الطويـل الشـاحب فحسـب، وإنمـا زعـم أنـه طعنـه بسـكين اخترقـت شـفرتها جسـده وكأنهـا تمـر خـلال الهـواء!

اسـتنتج الرومانـى أن ذلـك الغريـب ربمـا كان مختبئًـا فـى أحـد هـذه التوابيـت ! وأقسـم علـى أن ينـزل ويبحـث فـى كل صنـدوق. لكـن بعـد دقائـق قليلـة، سمـع القبطـان صرخـة مروعـة بعدهـا ركـض الرومانـى عائـدًا إلى ظهـر السـفينة.

بحسـب مـا جـاء فـى الرسـالة التـى كانـت بجيـب القبطـان، صـرخ الرجـل والخـوف يمـلأ عينيـه: «أنقذنـي!» كان الرعـب قـد تملـك القبطـان وهـو يـرى الرومانـى يركـض نحـو السـياج ويلقـى بنفسـه ليلقـى حتفـه فـى الميـاه البـاردة بالأسـفل، ظانًـا أن البحـر وحـده هـو الـذى يسـتطيع إنقـاذه.

وآخـر مـا جـاء فـى الرسـالة أن القبطـان رأى الرجـل شـاحب البشـرة هـو الآخـر، وقـال: « لكنـى لـن أتـرك عجلـة القيـادة، مهمـا حـدث، لـن يجبرنـى هـذا الوحـش الشـرير علـى هـذا!»

لم يسـتوعب أحـد مـا جـاء فـى هـذه الرسـالة، هـل كان القبطـان مجنونًـا؟

حضـرت المدينـة كلهـا جنازتـه، باسـتثناء السـيد سـويلز المسـكين، لقـد وجـدوه ميتًـا ذلـك الصبـاح، جالسًـا علـى مقعـد

السيدتين المفضل فى المقبرة، قال الطبيب إنه مات من الخوف، كان وجهه لا يزال يحمل تعبير التحديق إلى شئ مريع، فما الذى قد يكون رآه؟

أصيبت مينا بإرهاق شديد ليلة الجنازة، حتى إنها غطَّتْ فى نوم عميق ولم تسمع لوسى وهى تنهض وتسير أثناء نومها لتنزل الدرج وتخرج من النُّزل.

عندما استيقظت مينا، لم تجد صديقتها؛ فشعرت أنها تعرف إلى أين قد تكون لوسى ذهبت، أحضرت شالاً ثقيلاً وأسرعت نحو الأجراف والمقبرة، وكما توقعت، عندما اقتربت وبزغ ضوء القمر من وراء سحابة، رأت صديقتها من بعيد شاحبة مرتدية ثوب نومها الأبيض وهى تجلس على الشاهد المفضل لديهما.

ولكن ما هذا الذى كان يقف وراءها، ذلك الشئ الطويل الأسود الذى كان يميل نحوها؟ هل هو ظل سحابة؟ شخص ما أو حيوان؟ ركضت مينا بأسرع ما استطاعت، وعندما وصلت تأكدت مما رأت: كان شئ طويل أسود يميل نحو صديقتها التى كانت مُضطجعة.

صاحت: « لوسى ! » فرفع الشئ الأسود رأسه ليكشف عن وجه أبيض وعينين حمراوين وامضتين. هل كان ذلك حقيقيًا أم أنها هى الأخرى كانت تسير أثناء نومها وتحلم؟ أخفت السحب القمر لحظة أخرى، ليختفى كل شئ فى

opeikandi.com

الظلام، وعندما عاد القمر، كان الوحش قد اختفى وكانت لوسى لا تزال نائمة، هزَّتها مينا برفق لتوقظها، فأنَّت واضعة يدها على عنقها. ظنت مينا أنها ربما أُصيبت بالتهاب فى الحلق بسبب هواء الليل البارد.

أعطت مينا الشال للوسى وثبتته حول عنق صديقتها بدبوس وأعادتها إلى النُّزُل.

وفى اليوم التالي، بدت لوسى بخير باستثناء أن عنقها كان به ثقبان دقيقان.

قالت مينا: «أعتذر بشدة لابد أننى قد جرحتك بدبوسي».

قالت لوسي: «لا مشكلة، لم أشعر بأى شئ». لكن مينا كانت قلقة، فأثناء الإفطار حكت لوسى عن شئ كانت متأكدة من أنه حلم، فوصفت نفس الشئ الطويل الأسود ذا العينين الحمراوين الوامضتين الذى رأته مينا نفسها.

تلك الليلة، أوصدت مينا الباب المؤدى إلى غرفتهما، واحتفظت بالمفتاح فى رباط حول معصمها، حتى لا تستطيع لوسى إيجاده ومغادرة النُّزُل ثانيةً. وبالرغم من ذلك، جرِّبت لوسى طريقًا آخر، انتبهت مينا فى منتصف الليل على صوت فتح مزلاج النافذة.

opeikanal.com

ذهبت مينا لتحضر صديقتها وتبعدها عن النافذة، وهناك فى السماء الفاصلة بينهما وبين القمر. رأت خفاشًا عملاقًا يحلق فى دوائر واسعة.

قالت مينا وهى ترتجف: «عودى إلى فراشك!» وأطاعتها لوسى النائمة.

كل ليلة بعد ذلك ظلت لوسى تسير أثناء نومها إلى النافذة، وما إن تصل إلى هناك، حتى كانت تغطُّ فى النوم ورأسها مستند إلى عتبة النافذة، ذات ليلة هبت ريح باردة أيقظت مينا، وعندما ذهبت لتتفقد صديقتها، وجدتها نائمة هناك، وبجانب عنقها مباشرة كان يجلس طائر أسود عملاق.

وبمرور الأيام، زادت لوسى شحوبًا أكثر فأكثر. ربما كان هواء الليل البارد هو السبب، لمحت مينا رقبة صديقتها ذات يوم فقلقت عندما لاحظت أن الثقبين الدقيقين لم يكونا فى طريقهما إلى الشفاء، بل بالعكس، لقد ازدادا سوءًا ! إذا لم يلتئما قريبًا فستصر مينا على عرض لوسى على طبيب.

الفصل التاسع

جوناثان يتحسن ولوسى تتدهور

كم كان ذلك خبرًا مؤلمًا ومطمئنًا فى الوقت ذاته! وأى حزن ذلك الذى شعرت به مينا، لقد سمعت أخيرًا خبرًا عن جوناثان، فى صورة رسالة من مديره السيد هوكينز.

وفقًا لما جاء فى الرسالة، كان جوناثان مريضًا فى أحد مشافى بودابست طيلة الأسابيع الستة الماضية، لم يكن قادرًا على التواصل بوضوح، فقد كان يعانى حمى فى المخ، ويهذى بأشياء عن الذئاب والسم والدماء والأشباح والشياطين، لم تعرف الممرضات ماذا كان يعنى هذا بالضبط، لكنهم صبروا عليه ورعوه حتى استرد صحته.

غادرت مينا متجهة إلى بودابست على وجه السرعة، وعندما وصلت المشفى ورأت خطيبها، كانت تلهث من روع ما رأت، كان جوناثان فى غاية الضعف والشحوب.

قال وقد أجهش بالبكاء: «آه يا مينا، إذا كنت لا تزالين ترغبين فى الزواج مني، فلن تكون بيننا أسرار، لا أستطيع حقًّا أن أتذكر ما حدث لى قبل وصولى هنا، ولكنى أعلم أننى حتمًا دوِّنتُه فى مذكراتى اليومية. تقول الممرضات إنها كانت معلقة فوق جسدى عندما وصلت».

قال جوناثان وهو يعطيها الدفتر الصغير: «أسرارى مطوية بين غلافَىْ هذا الدفتر. اقرئيها فى الظرف والوقت المناسبين».

أخذت مينا الدفتر ووضعته جانبًا دون أن تفتحه. وافقت على الزواج بجوناثان وأقاما حفل الزفاف فى ذلك اليوم، بينما كان لا يزال فى فراشه بالمشفى. لقد أهدرا ما يكفى من الوقت!

فى الوقت ذاته، فى لندن، حيث عادت لوسى بعد رحيل مينا من ويتبى إلى بودابست، استمرت معاناة لوسى من الأحلام الغريبة التى لازمتها فى ويتبى. لم تستطع قطّ تذكر التفاصيل، لكنها كانت تصحو دائمًا والخوف يملؤها، كان وجهها يزداد شحوبًا على نحو غامض، وكان الجرح فى رقبتها يتدهور يومًا بعد يوم.

قلق خطيب لوسى - أرثر هولموود - للغاية، وطلب من صديقه الدكتور جون سيوارد أن يحضر للغداء ليأخذ رأيه. قال له آرثر: «لا تخبرها بسبب مجيئك».

لاحظ جون سيوارد أن لوسى كانت متغيرة كثيرًا. وأخبر آرثر أنه يفضل الكتابة إلى صديقه القديم ومعلمه الطبيب العظيم الأستاذ الجامعى فان هيلسنج فى أمستردام؛ حيث كان يعرف عن الأمراض غير المألوفة أكثر من أى شخص آخر فى العالم.

وافق آرثر وحضر الأستاذ فان هيلسنج، بدا قلقًا ولم يذكر السبب بعد، لكنه طلب بدلًا من ذلك إمهاله بعض الوقت للتفكير فى حالة لوسي، فى الوقت نفسه، طلب من الدكتور سيوارد أن يبقى عينيه على لوسى ويسجل كل التفاصيل مهما كانت بسيطة.

استمرت حالة لوسى فى التدهور، عندما رآها فان هيلسنج كانت شديدة الشحوب حتى إنه لم يبق عمليًّا أى احمرار فى شفتيها أو لثتها، عبس فان هيلسنج وأخذ دكتور سيوارد إلى الرواق، ثم صاح قائلًا: «لابد أن نجرى لها نقل دم على الفور!»

تبرع آرثر بالدم، وفى غضون دقائق عادت الحياة إلى وجنتى لوسي، تنهدت وحركت رأسها حركة خفيفة، تحركت ياقة ثوب النوم الذى كانت ترتديه فكشفت عن العلامات الحمراء على رقبتها.

وعندما رأى فان هيلسنج العلامات، شهق بسرعة كبيرة حتى كاد يُسمع لنفَسه صفيرٌ. لم يلاحظ آرثر هذا لكن

الدكتور سيوارد لاحظه. انتظر حتى اختلى بفان هيلسنج ليسأله: «ما الذى تستنتجه من تلك العلامات على رقبتها؟»

أجاب فان هيلسنج: «لست مستعدًّا للإجابة الآن، على العودة إلى أمستردام الليلة للرجوع إلى كتبي، ويجب أن تبقى هنا طوال الليل ولا تدعها تغيب عن نظرك». ثم أمسك بذراع سيوارد وقال: «أنا جادٌّ فى ذلك. يجب ألا تنام، سأعود سريعًا، وعندها سنبدأ».

سأله: «نبدأ ماذا؟»

أجاب: «سوف ترى».

اتفق الرجلان على عدم إخبار آرثر بالكثير، حتى لا يزيد قلقه، فهما على كل حال طبيبان مستعدَّان لمواجهة مثل هذه الأمور، وتنفيذًا للتوجيهات، راقب دكتور سيوارد لوسى طوال تلك الليلة والليلة التى تلتها، نامت لوسى كالطفل الصغير مطمئنة بوجود الطبيب إلى جوارها، وبسبب نقل الدم والراحة التامة، بدت فى أتم صحة بعد يومين فقط.

أما الدكتور سيوارد المسكين، فقد كانت حالته مختلفة، فى اليوم الثالث، أمسكت لوسى يده، وقالت: «لن تسهر الليلة. تبدو فى حالة مزرية وقد أصابك إعياء شديد، وكما ترى، لقد استرددت عافيتى ثانية».

تردد دكتور سيوارد، لكنه كان متعبًا كثيرًا، ووعدته

لوسى بأن تنام فى الغرفة المجاورة لغرفته وأن تترك الباب مفتوحًا حتى يسمعها إذا احتاجت إلى أى شئ

استيقظ دكتور سيوارد فى الصباح التالى بعد أن هزه فان هيلسنج الذى كان عابسًا، سأله: «كيف حال مريضتك؟»

قال دكتور سيوارد: «لقد كانت بخير الليلة الماضية».

ذهب الرجلان للاطمئنان عليها. عندما فتحا ستائر الغرفة المجاورة، اعترتهم صدمة كبيرة، فقد كانت لوسى أكثر شحوبًا وضعفًا مما كان عليه قبل ذلك بيومين. كان يبدو أن جسدها لم يعد يحمل قطرة دم واحدة.

تمتم فان هيلسنج مستهجنًا: «ضاع مجهودنا سُدَى. علينا أن نبدأ من جديد!»

كان جون سيوارد هو من تبرِّع بالدم هذه المرة، ولأنه كان مسئولاً عما حدث. شعر براحة كبيرة وهو يرى التأثير الفورى لنقل الدم مرة أخرى على المريضة.

فى الصباح التالي، أحضر فان هيلسنج للوسى زهورًا، ورتبها فى أنحاء غرفتها بعناية، قالت لوسي: «إنها رائعة، ولكن ما هذه الرائحة؟» ثم أدركت ماذا كانت هذه الزهور لقد كانت ثومًاّ فقالت: «هل هذه مزحة؟»

أجاب فان هيلسنج فى حدة: «الموقف لا يحتمل أى

مـزاح، وسـوف تتركـين هـذه الزهـور هنـا مـن أجـل الآخريـن إن لم يكـن مـن أجـل نفسـك». بـدت لوسـى خائفـة، فقـال لهـا فـان هيلسـنج بلطـف: «أعتـذر بشـدة، لم أقصـد أن أفزعـك، هلا قبلـت منـى هـذه الزهـور المتواضعـة علـى سـبيل المجاملـة؟ وهـلا أسـديتنى معروفًـا آخـر بوضـع إكليـل منهـا حـول رقبتـك وعـدم خلعـه؟»

قالت لوسي: «يشرفنى أن أقبل زهورك».

قـال فـان هيلسـنج: «يبقـى أمـر أخـير، لا تفتحـى نوافـذ غرفتـك أو أبوابهـا».

لم تفهم لوسي، لكنها وافقت.

فـى الصبـاح التالـي، قابـل الطبيبـان سـيوارد وفـان هيسـلنج والـدة لوسـى فـى الرواق بالأسـفل. سـألها فـان هيلسـنج مبتهجًـا: «كيـف أصبحـت مريضتنـا؟» حرصًـا عليهـا، لم يخبرهـا أى منهمـا بمـدى خطـورة حالـة لوسـى.

قالـت السيدة ويستينرا: «حسـنًا، ربمـا لم تكـن فـى أحسـن حـال، لكننـى عالجـت الأمـر». سـألها دكتـور سـيوارد منفعـلاً: «مـاذا تقصديـن؟»

شـرحت لـه السـيدة ويسـتينرا: «حسـنًا، عندمـا ذهبـت لأطمئـن عليهـا الليلـة الماضيـة، كانـت الغرفـة ممتلئـة بأزهـار ثـوم كريهـة الرائحـة وكانـت عديمـة التهويـة لأن النوافـذ كانـت

مغلقـة، لـذا ألقيـت الزهـور بعيـدًا وفتحـت النافـذة ليدخـل بعـض الهـواء النقـي، أنـا متأكـدة مـن أن ابنتـى نعمـت بنـوم أفضـل الليلـة الماضيـة بفضلـي».

دون إبـداء أى رد فعـل أمـام والـدة لوسـي، انتظـر الرجـلان حتـى مـرت، ثـم هرعـا إلى غرفـة لوسـى. بالطبـع، حـدث ذلـك ثانيـة، كانـت لوسـى أكثـر شحوبًا مـن أى وقـت مضـي، ثـار غضـب فـان هيلسـنج لحظـة فصـاح قائـلاً: «كيـف يمكننـا محاربـة هـذه الشـياطين ؟» لم يفهـم دكتـور سيوارد دلالـة هـذا التعليـق بالتحديـد، لكنـه تمالـك نفسـه بعـد دقيقـة وعـاد لعملـه.

هذه المرة، كان فان هيلسنج هو من تبرع بالدم.

اضطـر دكتـور سـيوارد للعـودة إلى المصحـة لتفقـد بعـض مرضـاه، لـذا وافـق فـان هيلسـنج علـى البقـاء مـع لوسـي، وكان آرثـر قـد ذهـب فـى رحلـة عمـل.

بعـد مـرور بضـع ليـالٍ، كان الدكتـور سـيوارد فـى مكتبـه يقـرأ بعـض الكتـب الطبيـة بعـد العشـاء عندمـا انفتـح البـاب فجـأة وباغتـه رينفيلـد ممسـكًا سكينًا، قبـل أن يتسـنى للدكتـور سـيوارد أن يبـدى أى رد فعـل، كان رينفيلـد قـد جـرح معصـم الدكتـور بالسـكين، فتسـاقطت بعـض نقـاط الـدم علـى الأرض.

دخـل الموظفـون المقيمـون متأهبـين للتصـرف معـه، لكـن رينفيلـد كان مطروحًـا علـى الأرض بالفعـل كان راقـدًا علـى بطنـه يلعـق الدمـاء مثـل الكلـب فـى مشـهد مثـير للاشمئـزاز.

وخلد الدكتور سيوارد للنوم وهو منزعج بشدة.

وزاد انزعاجه فى الصباح التالى عندما تسلم برقية وصلت متأخرة يومًا كاملاً، كانت رسالة عاجلة من فان هيلسنج يقول فيها إنه اضطر للمغادرة إلى أمستردام على الفور ويطلب من دكتور سيوارد أن يمضى الليلة مع لوسى. أدرك دكتور سيوارد مع الأسف أن الرسالة كانت تشير إلى الليلة الماضية. وقد أمضت لوسى الليلة وحدها.

هرع دكتور سيوارد والخوف يتملكه إلى منزل عائلة لوسي، وعندما وصل، التقى فان هيلسنج وهو يركض لاهثًا فى الرواق، وكما هو متوقع، رأى الرجلان مشهدًا مرعبًا.

حكت لهما لوسى فيما بعد أنها وجدت نفسها وحيدة الليلة الماضية، وكان مطمئنة إلى زهور فان هيلسنج – التى كان قد أعاد وضعها – وحرصت على وضعها حول رقبتها قبل أن تأوى إلى الفراش، لكن عندما حاولت أن تغمض عينيها، استيقظت على أصوات نباح كلاب جاءت من بعيد ورفرفة غريبة على نافذتها.

كانت قد شعرت بوهن وتوتر شديدين، حتى إنها طلبت من والدتها أن تستلقى إلى جوارها، وأردفت لوسى قائلة إنه فى خلال دقائق سمعت صوت عواء منخفض خارج النافذة مباشرة، ثم حدث اقتحام بشع حيث قفز ذئب عملاق من النافذة مخترقًا الزجاج.

ملأ الرعب صدر والدة لوسي، فتشبثت بزهور الثوم التى كانت حول رقبتها فمزقتها، لكن الزهور لم تكن لتنقذها: مزِّق الذئب رقبتها، فقتلها ثم اندفع خارجًا من النافذة مرة أخرى.

تجمدت لوسى فى مكانها مرتعدة، وحيدة، مع جثة والدتها، لم تجرؤ على الخروج. ولم تجرؤ على الحراك، لكنها ظلت تصلى فقط.

كانت هذه المرة هى أصعب معارك فان هيلسنج على الإطلاق. لقد استطاع أن ينعش لوسى قليلاً باستخدام بعض الأملاح كريهة الرائحة، لكنها كانت تحتاج إلى مزيد من الدماء وكلا الطبيبين كانا قد أجريا نقل دم بالفعل.

انطلق صوت يقول: «هل يمكن الاستعانة بي؟» وعندما نظرا، وجدا كوينسى موريس، الرجل الذى جاء من تكساس وعرض الزواج علي لوسى. كان آرثر قد طلب من موريس أن يمر بلوسى ليطمئن عليها فى غيابه. وأجرى فان هيلسنج نقل الدم.

شُفيت لوسى مرة أخرى، لكن كان بها شئ مختلف هذه المرة، ربما كان هذا الشئ فى عينيها ؟ربما كانت تحمل قسوة جديدة عليها؟ كان من الصعب تحديد هذا الشئ.

بالإضافة إلى ذلك، كانت أسنانها قد نمت قليلاً، وهذه

الحقيثقة هى أكثر ما أقلق فان هيلسنج.

فى يقظتها، كانت تجذب زهور الثوم بالقرب منها، لكن أثناء نومها، كانت تبعدها عن نفسها وتكشف رقبتها. وظلت أسنانها تزداد طولًا، لكن سرعان ما لاحظ الدكتور سيوارد أن الجروح التى كانت فى رقبتها قد اختفت تمامًا.

صاح دكتور سيوارد: «يا له من خبر سعيد!» لكن فان هيلسنج استنتج من هذا أمرًا مختلفًا، فأعلن قائلًا: «إنها تحتضر. ولم يبق أمامها وقت طويل. اذهب واحضر آرثر، لابد أن نخبره».

انحنى آرثر منفطر القلب مرتبكًا نحو عروسه التى لن يتزوجها أبدًا. وعندما رأته لوسى. دبت فيها قوة مفاجئة. صاحت: «آرثر، أنا سعيدة جدًّا لأنك أتيت، قبِّلنى! قبِّلني!»

أمسكت عنقه وجذبته نحوها بكل قوتها المفاجئة. هرع فان هيلسنج نحوهما وجذب آرثر، ودفعه للخلف فألقاه فى الجانب الآخر من الغرفة. وصرخ قائلًا: «إياك أن تفعل! من أجل حياتك وحياتها!»

كسا الغضب لحظات وجهى كل من لوسى وآرثر، لكنه سرعان ما اختفى من وجهها وشعرت بالامتنان لما فعله فان هيلسنج، قالت: «أشكرك، أرجوك أن تحميه وتمنحنى السلام». وعندئِذ لفظت أنفاسها الأخيرة، ورحلت.

اندفع آرثر خارج الغرفة غاضبًا حزينًا. اقترب دكتور سيوارد ووقف إلى جوار فان هيلسنج ناظرًا إلى لوسى المسكينة.

قال دكتور سيوارد: «أيتها المسكينة، يالها من نهاية مأساوية».

أجاب فان هيلسنج: «كلا، إنها ليست إلا بداية».

obeikandl.com

الفصل العاشر

فان هيلسنج يطلب الإيمان

عجَّل وجود مينا بجانب جوناثان بشفائه. لكن سعادة الحياة ظل يشوبها الحزن، فقد توفى السيد هوكينز مؤخرًا وترك لهما فى وصيته بيتًا قديمًا جميلاً فى إكستر. كانا يشعران بالامتنان والسعادة، لكنهما افتقدا صديق جوناثان القديم ومعلمه. ومنذ أيام قليلة فقط علما بحادثى وفاة لوسى ووالدتها الأليمين.

إضافة إلى أن أحداثًا غريبة أخرى كانت تجرى فى لندن، حيث كانت نشرات الأخبار الليلية تتحدث عن اختطاف أشخاص وعودتهم وعلى رقابهم ثقوب صغيرة؛ عضات من نوع ما. لقد كانت تلك بلا شك أوقاتًا مرعبة ومربكة.

كان الأستاذ فان هيلسنج قد كتب إلى مينا يسألها أن تسمح له بزيارتها فى إكستر. ومع أن جوناثان كان فى طريقه إلى الشفاء، رأت مينا أن فان هيلسنج يستطيع مساعدته

obeikandl.com

هـو الآخـر، كان لا يـزال يبـدو مضطربًـا فـى بعـض الأحيـان.

فمثـلاً، فـى جنـازة السـيد هوكينـز فى لنـدن، كانـا يجلسـان هنـاك فـى هـدوء عندمـا تشـبث جونـاثـان فجأة بـذراع مينـا وتمتم بأنفـاس متقطعـة: «يـا إلهـي!» التفتـت مينـا لـترى مـا ينظـر إليـه. كان هنـاك رجـل طويـل نحيـف ذو شـارب أسـود ولحيـة مدببـة. كان وجهـه قاسـيًا وأسـنانه ناصعـة البياض - لأن شـفتيه كانتـا شـديدتى الاحمـرار - وطويلـة ومدببـة كأسـنان الحيوانات.

تمتـم جونـاثـان: «إنـه هـو، ولكـن كيـف يُعقـل هـذا؟ لقـد عـاد إلى ريعـان شـبابه!» قلقـت مينـا عليـه، فأخذتـه بعيـدًا عـن حشـد الجنـازة.

بـدأت حديثهـا قائلـةً: «أرجـوك لا تغضـب، لكـن لابـد أن أفهـم ماالـذى حـدث لـك عندمـا كنـت مسـافرًا، هـل تسـمح لى بقـراءة مذكراتـك اليوميـة؟»

عندمـا بـدأت تقـرأ المذكـرات فـى وقـت لاحـق مـن ذلـك اليـوم، لم تكـد تصـدق مـا مَـرَّ بـه جونـاثـان، وبينمـا كانـت تقرأ، أعـادت كتابـة لغتـه المختصـرة بلغـة مفصلـة، ومـا إن انتهـت مـن الصفحـة الأخـيرة، حتـى وصـل فـان هيلسـنج.

كان عليهـا تأجيـل أسـئلتها لـه حتـى يسـألها هـو، فقـد كان لديـه الكثـير ليسـأله بشـأن مـا حـدث للوسـي، وخاصـةً فـى ويتبـى. كانـت مينـا شـابة دقيقـة الملاحظـة تـدوِّن كل شئ فـى مذكـرات خاصـة بهـا، وسـألها فـان هيلسـنج أن تسـمح لـه

بقراءتهـا.

قالـت مينـا: «دكتـور فـان هيلسـنج، يسـعدنى كثـيرًا أن أعطيك أى معلومـات أعرفهـا عـن لوسـي، لكـن هـلا سـاعدت زوجـى أيضًـا؟»

أجـاب فـان هيلسـنج: «بالطبـع سـأفعل، كيـف تريديـن أن أسـاعده؟»

قالـت مينـا: «سـأريك شـيئًا، إنـه نـص مذكـرات زوجـي». كانـت تقبـض علـى الأوراق بإحـكام، ثـم أردفـت: «لكـن لابـد أن تعدنـى ألا تضحـك أو تصـدر حكمًـا مسـبقًا عليـه.

فالأشياء التى كتب عنها.. . ليست عادية».

طمأنهـا فـان هيلسـنج قائـلاً: «لا تقلقـي، فأنـا معتـاد علـى الأمـور الغريبـة». وعدهـا فـان هيلسـنج بـأن يأخـذ الأوراق معـه إلى المنـزل ليقرأهـا.

وبعـد مـرور بضعـة أيـام، تلقـت مينـا برقيـة مـن أربـع كلمـات: «كل مـا قالـه صحيـح».

وفـى الوقـت ذاتـه، كان آرثـر هولمـوود فـى لنـدن يواجـه الحقائـق المريعـة التـى اكتشـفها. أثنـاء وقـوف آرثـر مـع جـون سـيوارد بجانـب جثـة لوسـى بينمـا كان الطبيـب يعدُّهـا للدفـن، سـأله آرثـر: «جـون، هـل هـى ميتـه حقًّـا؟»

حتـى فـى موتهـا كان جسـد لوسـى يبـدو صحيحًـا علـى نحـو

obeikandl.com

غريب. شئ ما كان يجري، وكان الدكتور سيوارد بحاجة إلى معرفته. لاحقًا، عندما اختلى دكتور سيوارد بفان هيلسنج، طالب بأن يعرف الحقيقة كاملة.

سأله فان هيسلنج: «ألا تساورك شكوك؟»

هز دكتور سيوارد رأسه.

قال فان هيلسنج: «لا يدهشنى هذا، فأنت رجل علم، أحيانًا، يشقُّ على رجال أمثالك أن يفهموا الأمور التى لا يوجد لها تفسير إلا فى كتب السحر، فمثلًا، هل يمكنك أن تخبرنى لم تعيش بعض العناكب أيامًا قلائل وتعيش بعض العناكب الضخمة الأخرى قرونًا داخل أبراج الكنائس الإسبانية العتيقة، ويستمر حجمها فى الازدياد يومًا بعد يوم إلى أن تشرب الزيت الموجود فى مصابيح الكنيسة بأكمله؟»

سأله دكتور سيوارد: «العناكب؟»

أردف فان هيلسنج: «ولم عمر السلاحف أكثر مما تعمر أجيال من البشر: لم تستمر حياة الفيل على مر عهود طويلة؟»

كان رأس الدكتور سيوارد يدور، فصاح: «انظر يا أستاذي، أخبرنى فقط! هل هذا نوع غامض من الأمراض، وهل يُحتمل أن تكون اللدغة التى كانت على رقبتها هى السبب فيه؟ وهؤلاء الرجال الذين عُثر عليهم فى المدينة

وقد أصيبوا بثقوب فى رقابهم؛ هل لدغهم نفس المخلوق الذى لدغ لوسى ؟ لا أستطيع أن أجد إجابة عن ذلك. لِمَ تتحدث عن العناكب والسلاحف والفيلة فى حين ما أحتاجه هو أن تخبرنى ما يجب فعله؟»

قال فان هيلسنج فى هدوء: «ما يجب عليك فعله هو أن تصدق ما يستعصى تصديقه. يجب أن تتحلى بالإيمان. أتقدر على ذلك؟»

وعده دكتور سيوارد بأن يحاول.

obeikandl.com

الفصل الحادى عشر

لوسى تتغير أكثر

سُرَّ فان هيلسنج لوعد دكتور سيوارد، وقال له: «سأمنحك إجابة قاطعة، الثقوب الدقيقة التى وجدوها على أعناق أهل المدينة لم يحدثها المخلوق الذى لدغ الآنسة لوسي». ثم توقف لحظة وأردف: «بل أحدثتها الآنسة لوسى نفسها».

قال دكتور سيوارد متعجبًا: «أستاذ هيسلنج، هل جننت؟»

قال فان هيلسنج: «أستطيع إثبات ما أقول، تعال معى الليلة إلى المقبرة». وأخرج شيئًا من جيبه، وقال: «لقد تمكنت من الحصول على مفتاح القبر».

لم يُصب دكتور سيوارد بارتباك كهذا طيلة حياته، وبالرغم من ذلك، فقد كان يثق فى معلمه القديم ويحترمه أكثر من أى شخص فى العالم، لذا وافق على الذهاب معه، سيحاول أن يصدق؛ أن يتحلى بالإيمان.

obeikandi.com

فـى مقـبرة لوسـى تلـك الليلـة، نظـر دكتـور سـيوارد بينمـا كان فـان هيلسـنج يفـك مسـامير نعـش لوسـى ويرفـع الغطـاء، كان النعـش فارغـًا.

سأله فان هيلسنج: «هل هذا دليل كافٍ؟»

أجاب جون سيوارد: «ربما سرقها لص من لصوص الجثث».

قال فان هيلسنج: «حسنًا، سأعطيك دليلًا آخر».

فـى تلـك الليلـة انتظـرا عـودة لوسـى. لاح بـين الأشـجار شـبح أبيـض، لكنـه لم يكـن لوسـى. لقـد كان شـبح طفلـة. شـك فـان هيلسـنج فـى أن لوسـى لم تكـن بعيـدة، وأنهـا قـد تكـون طـاردت الطفلـة. لحسـن الحـظ، لم تصـب الطفلـة بـأذى، لكنهـا كانـت منهكـة ومتَّسـخة ومذعـورة.

شـعر فـان هيلسـنج بـأن الأولويـة هـى أخـذ الطفلـة للشـرطة بعيـدًا عـن الأذى، قـال دكتـور سـيوارد: «أظنهـا فكـرة سـديدة». لم يكـن مقتنعًـا بعـد بنظريـة فـان هيلسـنج عـن لوسـى.

وفـى صبـاح اليـوم التالـي، عـاد دكتـور سـيوارد مـع فـان هيلسـنج إلى المقـبرة، وهـذه المـرة، كانـت لوسـى فـى نعشـها. وقـد بـدت أجمـل ممـا كانـت عليـه وهـى حيـة، أمـر لا يُصـدق، كانـت وجنتاهـا متوردتـين، وكانـت شـفتاها حمراويـن.

قال فان هيلسنج: «ألم تقتنع بعد؟»

رد سيوارد مترددًا: «حسنًا، ربما أعادها لص الجثث».

قال فان هيلسنج: «ليس هذا بوجه امرأة ميتة». وجذب شفتي لوسى للخلف ليكشف عن أسنان بيضاء طويلة وحادة، وقال: «لكن هذه هى الأسنان التى كانت تلدغ السكان المحليين». وأثناء حديثه، وضع بعض الثوم حول النعش ووضع صليبًا حول رقبة لوسي، وأضاف: «حسنًا يا جون. هذه هى الحقيقة الدامغة كاملة: لقد عض لوسى مصاص دماء وهى تسير نائمة. والآن تحولت إلى مصاص دماء. ولابد أن أقتلها وهى نائمة».

قال دكتور سيوارد وهو فى حالة ذهول: «أكمل حديثك».

قال فان هيلسنج: «لا بد أن أطعنها بوتد فى قلبها. لابد أن أفعل هذا بها أولًا ثم بمصاص الدماء الأكبر الذى فعل هذا بها، لكن ليس الليلة، علينا أن نُعلم آرثر بهذا الخبر».

قال دكتور سيوارد متعجبًا: «آرثر! لا يمكننا أن نخبره. لن يستطيع تحمل أخبار كهذه».

اعترض فان هيلسنج قائلًا: «بل علينا أن نخبره. إنه يشعر بوجود خطب ما، ولكن لا يعلم ما هو. وهذا يجعل الغضب والقلق يستبدَّان به. بحالته هذه، لن يبرأ حزنه أبدًا. لابد أن يعرف الحقيقة».

فـى الليلـة التاليـة ، بنـاءً علـى طلـب فـان هيلسـنج ، جمـع دكتـور سـيوارد موريـس وآرثـر وقابلـوا فـان هيلسـنج فـى فندقـه.

سـأل فـان هيلسـنج الرجـال الثلاثـة الواقفـين أمامـه : «هـل تثقـون بـى ؟ هـل ستشـدون مـن أزرى فـى أى شـئ يجـب علـى فعلـه؟»

أحنـى جـون سـيوارد الـذى كان علـى علـم مسـبق بالخطـة رأسـه فـى صمـت معربًـا عـن موافقتـه. قـال موريـس: «لا أعلـم مـا الـذى يجـرى هنـا لكنـى أثـق فـى الأسـتاذ وأقسـم أنـه أمين، وهـذا يكفينـي، سأشـارك معكـم».

لم يقتنـع آرثـر بسـهولة كغـيره، قـال: «لا أقصـد أن أكـون عنيـدًا، لكننـى رجـل مسـيحى ونبيـل. إذا طمأنتمونـى إلى أن مـا تعزمـون عليـه لا يخالـف أيًّـا مـن هذيـن الأمريـن، فسـوف أسـاندكم».

قال فان هيلسنج: «وأنا أقبل بشرطك، اتبعونى».

بينمـا كان فـان هيلسـنج يقـود الرجـال إلى سـاحة الكنيسـة حيـث دُفنـت لوسـي، كان توتـر آرثـر يـزداد، فأمسـك بـذراع فـان هيلسـنج وقـال: «انتظـر هنـا، مـاذا نفعـل؟»

تحـدث فـان هيلسـنج مباشـرةً «سـندخل مقـبرة لوسـى ونفتـح نعشـها » .

صاح آرثر: «بالطبع لن أسمح بذلك ! »

سأله فان هيلسنج: «ولماذا ؟ لو كانت ميتة، فلن يضرها ذلك».

سأل آرثر مأخوذا: «لو ؟ هل تعتقد أنها قد لا تكون ميتة؟ هل حدث خطأ ما ؟ هل دُفنت حية؟»

شرح له فان هيلسنج على مهل: «إنها ليست حية، لكنها قد تكون بعيدة كثيرًا عن الموت».

نظر إليه آرثر وكأنه على وشك أن يقتلع رأسه، وقال له: «أنا أحذرك يا سيد، من واجبي أن أحمي قبرها، وأقسم بالله أن أفعل هذا».

أجاب فان هيلسنج: «وأنا أيضًا لدى واجب على القيام به، واجب نحو الآخرين، ونحوك، ونحو الأموات، وأقسم بالله أني سأفعله، كل ما أطلبه هو أن تأتى معي، أن تنظر وتسمع، ثم تقرر».

ووافق آرثر.

obeikandl.com

الفصل الثانى عشر

لوسى تتغير مرة أخرى

لم يكن متبقياً على منتصف الليل سوى خمس عشرة دقيقة عندما تسلقت المجموعة التى تألفت من فان هيلسنج وكوينسى موريس وسيوارد وآرثر سورًا منخفضًا ووصلت إلى المقبرة، فتح الأستاذ فان هيلسنج الباب وأضاء مصباحًا وأشار إلى تابوت لوسي، لقد كان فارغًا.

انتفض آرثر وكأنه يشعر بألم، لكن الأستاذ انطلق فى أرجاء المكان؛ فأولًا أغلق التابوت، وأخذ قطعة من خبز القربان بين يديه، ثم فتتها وبللها وصنع ما يشبه العجين. ووضع هذا العجين فى سدادات التابوت.

سأله موريس: «ماذا تفعل؟»

أجاب: «أسد المقبرة بخبز القربان؛ ذلك الخبز المقدس، فهو يطرد الشر، والآن لننتظر بالخارج».

obeikandl.com

أمَّن الرجال أماكنهم بين الشجيرات، حذرهم فان هيلسنج قائلاً: «صه! أحدهم قادم».

جثم الرجال وظلوا يراقبون، كان جسم أبيض يتحرك تجاههم، وعلى الفور، أدركوا جميعًا أنها كانت لوسي، لكنهم صدموا جميعًا للتغير الذى أصابها، لقد تحولت عذوبتها بطريقة ما إلى قسوة، وتحول نقاؤها القديم إلى شر جديد، تسارعت أنفاس آرثر.

رفع فان هيلسنج مصباحه وسلّط الضوء على لوسي، وفى ضوء المصباح، رأى الرجال أن شفتيها كانتا قرمزيتين بفعل آثار دماء حديثة.

وعندما رأت لوسى الرجال، زمجرت واستهجنت فى غضب، كالقطة التى باغتها أحدهم، كان الشر يتطاير من عينيها، ولكن حينئذ غيرت مسارها، نادت: «آرثر» ومدت ذراعيها نحوه في رقة مردفة: «اقترب مني». تحرك آرثر نحوها كالمسحور، واندفعت هى نحوه لكن فان هيلسنج كان مستعدًا لمواجهتها، فقفز بين الاثنين، ممسكًا بيده صليبًا ذهبيًا، قفزت لوسى إلى الوراء وقد تحولت ملامح وجهها وأسرعت فيما يبدو عائدةً إلى قبرها.

لكن عندما أصبحت على بُعد قدم أو اثنين منه، توقفت، حيث شعرت بخبز القربان الذى وضعه فان هيلسنج بداخله، فعادت مرتبكة وغاضبة، وكأن الشرر كان يتطاير

من عينيها؛ لو كانت النظرات تقتل لكانت نظراتها قاتلة. لقد كانت وحشًا.

سأل فان هيلسنج آرثر: «هل أستمر؟»

سقط أرثر على ركبتيه وقال فى وهن: «افعل اللازم». أغمض عينيه ظانًّا أن فان هيلسنج سيقتل لوسى حينها. ولكن بدلًا من ذلك، سار فان هيلسنج نحو لوسى. وأزال الخبز من تجاويف النعش، وفتح التابوت وتراجع، انسلّت لوسى بداخله بشعور لا يوصف إلا بالراحة، وأغلق الأستاذ الغطاء.

قال: «الليلة ليست الوقت المناسب».

وفى اليوم التالى، عادوا ووجدوا لوسى نائمة فى نعشها، ألقى الرجال نظرة أخيرة على فم المرأة الجميلة الذى كان لا يزال ملطَّخًا بالدماء. كانت الابتسامة التى ارتسمت على شفتيها أثناء نومها تقليدًا شيطانيًّا لعذوبتها التى تميزت بها أثناء حياتها.

أخرج فان هيلسنج أدواته من حقيبته الطبية سريعًا، ومن بينها وتد خشبى مستدير مسنن الطرف.

شرح لهم فان هيلسنج الأمر قائلًا: «عندما يصبح ضحايا العض أشباحًا بصورة قاطعة، يواصلون افتراس ضحايا جدد وينشرون شرهم. وإذا لم نوقفهم تتسع الدائرة دون توقف، كالموجات التى تتكون عند إلقاء حجر فى الماء». تحدث

بلطف إلى صديقه قائلاً: « آرثر، لو كنت تركت لوسى تقبّلك ذلك اليوم عندما منعتها أول مرة أو الليلة الماضية عندما أردت أن تحتضنها ثانيةً لأصبحت مصاص دماء أيضًا».

وأضاف: «أما إذا قتلناها الآن، فستشفى على الفور جراح كل البشر الذين عضتهم حتى الآن، حيث لن يعود لها سلطان عليهم، وسنحرر لوسى هى الأخرى.

بدلًا من أن تزداد شرًّا يومًا بعد يوم، ستكون ملاكنا فى المكان الذى نستحقه، فى المكان الذى تنتمى إليه، مع الملائكة الآخرين، ستجد أننا نسديها معروفًا، إذا فكرت من هذا المنظور».

قال آرثر فى ثبات: «إذن اترك لى هذه المهمة، فقط أخبرنى بما على فعله».

أوضح له فان هيلسنج أن عليه طعنها بوتد مباشرةً فى قلبها. وقال: « يجب ألا تتردد».

ولم يتردد آرثر. ففى لحظة انتهت المهمة المريعة، ولم يكن فى النعش وحش شرير، وإنما كانت لوسى التى عهدوها، بجسدها الطبيعى. الهدوء الذى كان يعلو وجهها بعث الطمأنينة فى قلوب الرجال الثلاثة عندما نظروا إليه. وأخيرًا رقدت لوسى فى سلام.

قال فان هيلسنج: «الآن يمكن تقبيلها».

انحنى آرثر نحوها وطبع على جبينها قبلة.

أعلن فان هيلسنج قائلاً: «لقد بدأ عملنا للتوِّ، علينا بعد ذلك أن نجد الذى تسبب فى كل هذه المأساة ونسحقه، فهل ستساعدوننى جميعًا ؟ هل سنعمل كفريق؟»

اتفق الرجال على أن يلتقوا بعد ذلك بليلتين فى المصحة التى كان يعمل بها ويعيش بها الدكتور سيوارد، كان فان هيلسنج سيحضر رجلين آخرين، وقال إن جوناثان هاركر قد احتفظ بمذكرات دقيقة تروى لقاءه بالوحش، وهذا سيفيدهم فى سعيهم.

تصافح الرجال وتعاهدوا على أن يستمروا فى الكفاح حتى يقضوا على الشر.

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

الرجال يستبعدون مينا

عـاد فـان هيلسـنج فـى زيـارة سـريعة إلى منزلـه بأمسـتردام للرجـوع إلى بعـض كتبـه، وغـادر جوناثـان ليتفقـد الشـحنة التـى نُقلـت مـن ديميـتر؛ المركـب الـذى كان قـد وصـل ويتبـى فـى ظـروف غريبـة، فـى الوقـت نفسـه، ذهبـت مينـا إلى المصحـة لتـزور السـيد سـيوارد. كانـت تريـد أن تسـمع آخـر تفاصيـل وفـاة صديقتهـا القديمـة لوسـى. كانـت القصـة وحشـية وغامضـة.

لـو أن مينـا لم تقرأ أحداثًا مشـابهة فى دفـتر مذكرات جوناثان عـن ترانسـلفانيا، لظنـت أن الدكتـور سـيوارد قـد فقـد عقلـه.

تعجـب كلاهمـا مـن المصادفـة التـى حدثـت؛ فقـد علمـا ممـا جـاء فـى مذكـرات جوناثـان أن كارفاكـس - المنـزل الذى اشـتراه الكونـت مؤخـرًا - كان بجـوار المصحـة مباشـرةً، والآن فهـم الدكتـور سـيوارد سـبب التصرفـات الغريبـة التـى كانـت تصدر مـن رينفيلـد؛ مريضـه الـذى كان يشـتهى دمـاء الحيوانـات.

obeikandl.com

بالإضافة إلى ذلك، اتضح أن بعض التوابيت – على الأقل – التى كانت ممتلئة بالتراب قد وُضعَت فى عقار كارفاكس، كان أحد الموظفين المقيمين قد أخبرهم أنه رأى طردًا ضخمًا يُسلم فى يوم سابق.

سرعان ما أصبح الجميع حاضرين ومتأهبين للبدء فى التخلص من الوحش الشرير. كان بينهم بالطبع فان هيلسنج، القائد غير الرسمى للفريق. وجوناثان هاركر، الرجل الوحيد بينهم الذى التقى الكونت بالفعل وجهًا لوجه. وكوينسى موريس، الذى كان يبدو مرحًا لكن يمكن الاعتماد عليه. ودكتور جون سيوارد، الذكى صاحب التفكير العلمى. واللورد جودالمينج، الذى كان رجلاً صاحب أخلاق رفيعة وأموال كثيرة، سيحتاج الفريق إليهما بالتأكيد.

سألت مينا: «وماذا عني؟»

أجاب فان هيلسنج: «إنك لا تقلين فطنةً عن أى رجل، لكن مطاردة مصاصى الدماء عمل لا يصلح للسيدات».

وأمسكت مينا لسانها وصمتت.

بينما خرج موريس ليجمع الأسلحة، أخبر فان هيلسنج المجموعة ببعض التفاصيل الأساسية عن مصاصى الدماء، فأوضح لهم أنه فى كل مرة يعض مصاص الدماء، يزداد قوة. ومصاص الدماء لديه القدرة على توجيه الطقس وإرسال العواصف والضباب والرعد، يستطيع أن يأمر الفئران والبوم

والخفافيش والذئاب، ولا يمكن رؤيته في المرايا. يمتلك مصاص الدماء الواحد قوة عدة رجال، ويمكنه أن يصبح ضخمًا أو أن يختفي تمامًا.

قال فان هيلسنج مؤكدًا: «ولكن يجب ألا ننسى، أننا – نحن البشر العاديين – أقوياء أيضًا، فالعلم سلاحنا. ولدينا حرية الفكر وحرية التصرف. ومصاص الدماء لديه بضع نقاط ضعف كبيرة. تتبدد قوته مع شروق شمس كل صباح. ولا يستطيع أن يتحول إلا عند شروق الشمس أو غروبها بالضبط. وهو يخشى الصلبان والثوم».

سأل آرثر: «ما الخطة؟»

قال فان هيلسنج: «يجب أن نجد كل تابوت من التوابيت الخمسة عشر ونطهر التراب الذى بداخلها باستخدام الخبز المبارك، حتى لا يتمكن الكونت من العودة إليها. وبعدها، لابد أن نجد ذلك الوحش، بين الفجر وغروب الشمس عندما يكون في أضعف حالاته ونغرس وتدًا في قلبه».

قاطعهم صوت تهشم زجاج. لقد كان صوت تهشم النافذة المجاورة لهم. شخص ما أطلق الرصاص عليها، انحنى كل منهم متفاديًا الهجوم ظنًّا منهم أنه الكونت، لكن كل ما في الأمر أن الرصاصة أطلقها كوينسي موريس من أسفل وهو مضطرب. أوضح لهم كوينسي أنه رأى خفاشًا ضخمًا يقف على عتبة النافذة يختلس النظر إليهم، فأطلق عليه النار بمسدسه.

قال اللورد جودالمينج ممازحًا» رمية موفقة».

سألت مينا: «متى نبدأ؟»

ذكرها فان هيلسنج قائلاً « بل متى نبدأ نحن، وليس أنت».

بدأت مينا تعترض، ولكن حتى جوناثان بدا موافقًا. لقد كان الرجال عازمين على عدم إقحامها فى الأمر.

حينها طرق أحد الموظفين المقيمين الباب ومعه رسالة للدكتور سيوارد. كان رينفيلد يطلب لقاءه.

قال فان هيلسنج: «أود أن أقابل هذا المدعو رينفيلد». قرر الآخرون أن يذهبوا أيضًا. عندما دخل الرجال غرفته، وجّه رينفيلد خطابه إلى دكتور سيوارد قائلاً بهدوء: «دكتور سيوارد، يجب أن أغادر المشفى على الفور. من أجل الآخرين، يجب أن تتركنى أذهب» حدّق فان هيلسنج فى رينفيلد بنظرة حادة تنم عن شك، وقال: «ما السبب الحقيقى الذى تريد أن تتحرر من أجله الليلة؟»

قال رينفيلد: «لا أستطيع أن أخبرك».

رفض الدكتور سيوارد. فخرج رينفيلد عن شعوره، وألقى بنفسه على الأرض وتوسل فى هستيريا. قال منتحبًا: «أرجوك، دعنى أخرج من هذا المنزل! إنك لا تعلم ما تفعله بإبقائى هنا. لا أستطيع أن أخبرك من الذى سيتأذى،

لكن أرجوك، أتوسل إليك، لست مجنونًا. أنا رجل عاقل يحارب لينجو بروحه. أرجوك!»

انفطر قلب دكتور سيوارد. لقد كان رينفيلد بالفعل أفضل حالًا، على الأقل قبل ذلك الانهيار، لكنه كان مشوشًا بشأن الكونت. كان ينادى دراكولا «مولاي» و «سيدي».

خشى دكتور سيوارد من فعل أى شئ يساعد الكونت. وكان جوابه النهائي: «لا».

تمتم رينفيلد: «لاحقًا، تذكر فقط مغبة ما فعلته».

قال دكتور سيوارد عندما كانت المجموعة تسير عائدة إلى المكتب: «أتمنى أن أكون قد فعلت الصواب».

أجاب الأستاذ فان هيلسنج: «لا يسعنا إلا أن نفعل ما نظنه الأفضل فى هذا الحين».

الفصل الرابع عشر

مينا تخشى الليل

بينما أُبعدت مينا عن الخطة ونامت وهى حزينة، غادر الرجال المصحة وتسللوا إلى المنزل المجاور؛ إلى كارفاكس فى جُنح الظلام. كان كل منهم يحمل صليبًا وبعض الثوم وقطعة من الخبز المقدس.

كانت بحوزتهم أيضًا مفاتيح تستطيع أحيانًا أن تفتح العديد من الأبواب المختلفة إذا حُركت بطريقة صحيحة. انفتح قفل الباب الأمامى لكارفاكس فى النهاية، وبعد دفعه، أصدرت مفصلاته الصدئة صوت صرير، وانفتح الباب ببطء، نظر الرجال بإمعان فى الداخل، فرأوا أن المكان يغطيه تراب كثيف وكتل كبيرة من شِبَاك العنكبوت. تعوَّذوا برسم الصليب أثناء تجاوز العتبة.

همس فان هيلسنج قائلًا لجوناثان: «لقد رأيت خرائط لهذا المكان عندما كنت ترتب لشرائه فقُدنا إلى الكنيسة الصغيرة».

obeikandi.com

وجد جوناثان بسرعة التوابيت الممتلئة بالتراب التى كانوا يبحثون عنها، لكن عندما أحصوها وجدوا أنها تسعة وعشرون تابوتًا فقط وليست خمسين، وحينها، بدأ شئ يتحرك على الأرض تحت أقدامهم، هل كان الكونت يزحف؟ أم كان هؤلاء مصاصى دماء آخرين؟

لم يكن الأمر كذلك، لقد كانت فئران؛ مئات الفئران. كان المكان يموج بها!

كان رد فعل اللورد جودالمينج هادئًا. أخرج من جيبه صفارة فضية ونفخ فيها. جاء الرد على صفارته من خلف منزل الدكتور سيوارد فى صورة نباح كلاب. وبعد دقيقة، اندفعت عبر الباب المفتوح ثلاثة كلاب صيد شرسة ودخلت إلى الكنيسة. كانت تهاجم وتنبح بوحشية، فهربت جميع الفئران.

فتّش الرجال بقية أنحاء المنزل، لكنهم لم يجدوا شيئًا، لم يكن الكونت هناك.

قال فان هيلسنج وهم فى طريقهم إلى الخروج: «استطعنا على الأقل أن نحصى التوابيت، وتعرفنا أيضًا على المنزل».

اتفق الرجال على أن عدم حضور مينا معهم كان أفضل قرار اتخذوه. واتفقوا على ألا يطلعوها على تفاصيل مهمتهم المرعبة. كان هذا شاقًا على جوناثان لأنهما اعتادا أن يتشاركا دائمًا كل شئ، لكنه كان مستعدًّا لفعل أى شئ لحمايتها، لذا التزم بالخطة.

عندما عادوا إلى المصحة، ذهب جوناثان ليطمئن على مينا، فوجدها أكثر شحوبًا من المعتاد، لكن باستثناء ذلك، كانت تبدو بصحة جيدة وتنعم بنوم هادئ.

استيقظت مينا فى الصباح التالى وهى تشعر بحزن غريب وإحباط. فكرت فى أن السبب حتمًا كان الحلم المريع الذى راودها، وارتعدت لذكره. لقد رأت ضبابًا أو دخانًا كثيفًا يتسرب من صدوع الباب. كان الهواء يزداد رطوبةً وبردًا. ثم رأت شيئًا أسود بعينين حمراوين ينحنى فوقها.

بالتأكيد - حسب ظنها - لم يكن هذا سوى شعورها بالذنب على مشاركتها فى موت لوسى بإحضارها إلى ويتبى. لكن فى الليالى القليلة التالية. مرت بالتجربة نفسها وشعرت بأن حالها ساءت عندما استيقظت. كانتت تزداد شحوبًا وإعياءً أثناء النهار.

وطلبت من الدكتور سيوارد دواءً يساعدها على النوم.

وصف لها الدكتور سيوارد دواءً وفى الليلة التالية تناولته، لكن ما إن بدأ مفعوله يسرى فى جسدها حتى تملكها خوف غريب. تساءلت فجأة هل أخطأت بأخذها دواءً يمنعها من الاستيقاظ إذا احتاجت إلى ذلك، وظنت أنها ستكون فى أمان أكثر وهى مستيقظة.

لكن الأوان كان قد فات، فقد غلبها النعاس.

الفصل الخامس عشر

رينفيلد يتحدث

كان جوناثـان يقتفـى بـدأب أثـر توابيـت الـتراب المفقـودة. سـأل العديـد مـن النـاس بـدءاً مـن الشـركة التـى أسـتأجرها الكونـت لشـحن التوابيـت وسـليمها، وعـرف وجهـات بعـض التوابيـت فـى مناطـق مختلفـة بلنـدن.

لاحقًـا، علـم جوناثـان أن العديـد مـن الوابيـت قـد أُخـذت إلى منـزل فـى بيكاديللـى. وعندمـا تظاهـر بأنـه عمـدة المدينـة، اسـتطاع أن يحصـل علـى العنـوان بالتفصيـل، وعندمـا وصـل هنـاك، علـم أنـه فـى المـكان الصحيـح، فقـد كان المـكان يبـدو مهجـورًا منـذ زمـن بعيـد، كانـت لافتـة كُتـب عليهـا» للبيـع « ذُكـرِ فيهـا أسمـاء الـوكلاء – وهـم ميتشـيل وأولاده وكانـدي» – قـد أُنزلـت مؤخـرًا وتسـتند إلى جـدار المنـزل.

ذهـب جوناثـان إلى مكتـب الـوكلاء. لكـن عندمـا سـألهم عـن الـذى اشـترى المنـزل، لم يقولـوا سـوى «المنـزل مبـاع»، ضغـط

obeikandl.com

جوناثـان علـى أحدهـم حتى قال: «شئون عملائنا سـرية للغاية».

قـال: «إن عملاءكـم محظوظـون لأن لديهـم أشـخاصًا جاديـن ومخلصـين فـى خدمتهـم، سيشـعر مديـرو اللـورد جودالمينـج بخيبـة أمـل، لكـن سـيكون عليـه ببسـاطة أن يتقبل هـذا الخبر».

سـأله الوكيـل: «اللـورد جودالمينـج؟» كاد جوناثـان يـرى عقل الوكيـل واسـم مثـل هـذا النبيـل الثـرى يـدور بداخلـه، ثـم هـزَّ الوكيـل كتفيـه فـى حـرج، وقـال: «حسـنًا، ربمـا أمكننـا هـذه المـرة أن نعطيـه اسـتثناءً، هـذه المـرة فقـط. لقـد اشـترى المنـزل نبيـل أجنبـى يُدعـى الكونـت ديفيلـى. ودفـع المبلـغ نقـدًا. ولا نعلـم أكثـر مـن هـذا».

عندمـا عـاد جوناثـان حامـلاً تفاصيـل منـزل بيكاديللـي، تسـاءل الرجـال: « كيـف سـندخل المنـزل؟» كانـوا يعتقـدون أنهـم سـيجدون كل مـا يبحثـون عنـه هنـاك؛ كل أوراق الكونـت وحجـج ملكياتـه ومفاتيحـه.

قـال فـان هيلسـنج: «يمكننا اقتحامه كما فعلنـا فى كارفاكس».

أوضـح موريـس: «لا أظـن ذلـك ممكنًا، هناك اختبأنا فى سـتر الليـل ووراء سـور يحمينـا. أمـا اقتحـام منـزل فـى وضـح النهـار فـى موقـع مركـزى كهـذا علـى الطريـق فسـيكون أمـرًا مختلفًـا».

فكَّـر فـان هيلسـنج دقيقـة قبـل أن يسـأل: «إذا كنـا أصحـاب ذلـك المنـزل، ولم نسـتطع الدخـول، فمـاذا كنـا سـنفعل؟»

قال جوناثان: «كنا سنستدعى مصلح الأقفال، ونقف هناك معه وهو يفتح القفل. إنها فكرة رائعة حقًّا. إذا مرت الشرطة بجانبنا ورأت شاحنة مصلح الأقفال وزيه الرسمي، فلن يفكروا فى التدخل!» وافق الرجال على أنها خطة بارعة.

فى الوقت نفسه، بدت تصرفات رينفيلد أغرب من المعتاد.

سأله الدكتور سيوارد محاولًا تحليل نفسيته: «هل تود بعض الذباب ؟أو العناكب؟»

قال رينفيلد مستهزئًا: «عناكب؟ لا يوجد بها شئ آكله أو أشربه».

ردد الدكتور سيوارد منزعجًا: «تشربه؟»

شعر رينفيلد بالذنب وكأنه أفشئ سرًّا عن غير قصد. ولم يرغب فى الكلام بعدها.

فقد الدكتور سيوارد الأمل، ولكن أُثر اهتمامه مدى توتر المريض لدى ذكر الشرب.

بعدها فهم الدكتور سيوارد الأمر: لقد تجاوز رينفيلد مرحلة الاستمتاع بتناول الحيوانات. كانت الحياة البشرية والدماء هى ما يسعى إليه رينفيلد! استنتج دكتور سيوارد أن الكونت قد وصل إلى رينفيلد، وأن خطة إرهاب جديدة من نوع ما كانت تُحاك.

وفـى وقـت لاحـق مـن تلـك الليلـة، تحققـت أكـبر مخـاوف الطبيـب؛ حـين جـاء أحـد الموظفـين المقيمـين ليخـبره بـأن شـيئًا مـا حـدث لرينفيلـد. هـرع الدكتـور سـيوارد إلى غرفـة رينفيلـد ليجـده مطروحًـا أرضًـا فاقـد الوعـى وبجسـده جـروح بالغـة، ينـزل علـى إثـر ضربـات فـى جسـده ورأسـه ووجهـه.

قـال دكتـور سـيوارد للموظـف المقيـم: «اذهـب وأحضـر الأسـتاذ فـان هيلسـنج».

أتى آرثر وكوينسى موريس واللورد جودالمينج أيضًا. أدخل فان هيلسنج المريض بسرعة غرفـة العمليات حيث أجـرى له جراحة لتخفيـف الضغـط عـن مخـه. وبعـد ذلـك، فتـح المريـض عينيـه.

سأل رينفيلد: «هل احتضر أيها الطبيب؟»

أجابـه فـان هيلسـنج: «ربمـا، لـذا حـان الوقـت لأن تخبرنـا كل شـئ».

قـال رينفيلـد: «لقـد قطـع لى وعـودًا، وجعلنـى أفعـل أشـياء».

قال فان هيلسنج: «الكونت؟ هيا أكمل».

قـال رينفيلـد: «لكنـه كان كاذبًـا. لـذا عندمـا أتـى الليلـة مـرة أخـرى مـن أجـل السـيدة مينـا...».

لـدى سماعهـم هـذا، انتفـض كل رجـل فـى الغرفـة واثبًـا مـن مكانـه واقتربوا.

وتابع رينفيلد: «.. . قاومته، وقد فعل ذلك بي، كسرني». بعد ذلك، شق عليه الحديث فتركه الرجال بمفرده.

قال فان هيلسنج: «غير معقول، ظننا أننا نحميها بإبقائها بعيدًا عن خططنا. لكن عندما ابتعدنا وتركناها دون حماية، جلبنا لها المعاناة».

هرع الرجال إلى غرفة مينا لكنها كانت موصدة، شعروا بأن ذلك الباب وراءه خطر عظيم، فكسروه واقتحموا الغرفة، وما رأوه بالداخل كاد يجعل الرأس شيبًا.

كان جوناثان راقدًا على الفراش يتنفس بصعوبة ويبدو فاقدًا للوعى. وكانت تميل نحوه زوجته مينا بردائها الأبيض، وبجانب مينا كان يقف رجل طويل نحيف بزى أسود. الكونت. كان الكونت يمسك يدى مينا بيساره. ويدفع رقبتها من الخلف بيمينه دافعًا وجهها نحو صدره! لقد كان يجبرها على شرب دمه!

بمجرد دخولهم الغرفة، اهتاج الكونت، واتسعت فتحتا أنفه كحيوان غاضب ورمقهم بنظرات شيطانية غاضبة، ألقى مينا جانبًا واندفع نحو الرجال يهاجمهم، لكن الأستاذ هيلسينج كان مستعدًّا له ورفع يده وبها خبز القربان، جثم الكونت مرتعدًا وتقدم نحوه الرجال الأربعة ممسكين بالخبز والصلبان أمامهم.

لكن فى تلك اللحظة، اختفى القمر برهة خلف سحابة. وفى الظلام، اختفى الكونت كنفثة الدخان، تاركًا وراءه أثرًا ضبابيًّا فقط.

ركض آرثر واللورد جودالمينج خارجين من الباب ليحاولا أن يتبعاه. بدأت مينا تبكى وتصدر عويلاً صاخبًا لا نهاية له. خطا نحوها فان هيلسنج ودثَّرها برفق بغطاء. كانت رقبتها تنزف؛ فقد أعطت دمًا كما أخذت دمًا.

حينها تحرك جوناثان، محاولاً أن يفيق، ناظراً حوله فى ارتباك، وقال: «ماذا تفعلون جميعًا هنا؟ ماذا حدث؟» نظر إلى زوجته، وإلى الدماء التى لطخت رقبتها وفمها، وسأل : «ماذا تعنى هذه الدماء؟»

وفجأة أدرك كل شئ، فبكى قائلاً « غير معقول، لا، لا، لا ! يا إلهي، لا تدع هذا يحدث ليس لحبيبتى مينا ! »

عندئذ، اشتد عويل مينا.

حضن جوناثان مينا، لطخت الدماء التى كانت على رقبتها قميصه، فابتعدت عنه وانتحبت وهى تقول: « لا تحضنني، فأنا ملوثة، لا أستطيع أن أقبلك أو ألمسك بعد الآن.

كم هذا مؤلم! تخيل أن أكثر شخص يحبك يجب أن يكون الآن ألد أعدائك، أن يكون أكثر من تخشى! »

عـاد آرثـر واللـورد جودالمينـج، لم يجـدا أثـراً للكونـت لكـن عندمـا كانـا بالخـارج رأيـا خفاشًـا ضخمًـا يطـير مـن نافـذة رينفيلـد، وعندمـا صعـدا لغرفـة المريـض كان ميتًـا.

سأل فان هيلسنج: «هل اتجه الخفافش نحو كارفاكس؟»

أجاب موريس: «لا».

قـال فـان هيلسـنج: «حسـنًا، لقـد اقـترب الفجـر، لـذا لـن يعـود الليلـة. غـدًا نواصـل ملاحقتنـا لـه. لكـن الليلـة..». والتفـت إلى مينـا قبـل أن يكمـل: «لابـد أن تخبرينـا كل مـا تذكرينــه، إذا اسـتطعت أن تتحملـى ذلـك».

قالـت مينـا: «لقـد أخـذت المنـوم الـذى أعطيتنـى إيـاه، فغلبنـى النعـاس، ومـا أذكـره بعـد ذلـك هـو أنـى رأيـت ضبابًـا أبيـض فـى الغرفـة، وشـعرت بالرعـب نفسـه الـذى تملكّنـى سـابقًا وبحضـور قـوى. كان جوناثـان نائمًـا إلى جـواري، وحاولـت أن أوقظـه، لكنـى لم أسـتطع. نظـرت حـولى فـى رعـب، ثـم خـرج مـن بـين الضبـاب رجـل طويـل نحيـف مغطّـى بـرداء أسـود بالكامـل، عرفتـه علـى الفـور مـن الوصـف الـذى أعطيتمونـى إيـاه جميعًـا ومـن مذكـرات جوناثـان. الوجـه الشـاحب، والأنـف الطويـل، والشـفتان الحمـراوان المفتوحتـان ليكشـفا عـن أسـنان حـادة و..». ثـم أضافـت وهـى ترتجـف: «هاتـان العينـان الحمـراوان المخيفتـان!» وتابعـت: «هممـت بالصـراخ، ولكنـه أخبرنـى أنـه سـيقتل جوناثـان إن فعلـت.

قـال إنـه سيشـرب دمائـى وانهـا لم تكـن المـرة الأولى التـى يفعـل فيهـا هـذا. شـعرت بـأن قـواى تخـور. لم يكـن هنـاك مـا أسـتطيع فعلـه. ثـم تحـدث عنكـم جميعًـا. وسـخر مـن محاولاتكـم هزيمتـه؛ هـو الـذى عـاش مئـات السـنين حتـى قبـل أن تولـدوا، قـال إنـه سـيعاقبنى علـى مسـاعدتى لكـم، وإن عقابـى سـيكون أن ألبـى نـداءه إلى الأبـد متـى دعانـى. عندمـا يقـول عقلـه» تعالـي»، سـأعبر رغمًـا عنـى الأرض والبحـار لألبـى أمـره. وليضمـن نجـاح خطتـه، فتـح وريـدًا فـى صـدره وأجبرنـى علـى شـرب دمائـه! لم يكـن لـدى خيـار! لم أسـتطع أن أتنفـس! يـا إلهـى ! مـاذا فعلـت ! مـاذا فعلـت ؟» وبـدأت مينـا تفـرك شـفتيها بعنـف وكأنهـا تزيـل مـن عليهمـا سمًّـا.

قـرر الرجـال أنـه منـذ تلـك اللحظـة فصاعـدًا سـتكون مينـا علـى علـم دائـم بتفاصيـل خططهـم، فـان هيلسـنج فقـط هـو مـن كانـت لديـه بعـض التحفظـات. سـأل مينـا: «ألا تخافـين، ليـس علـى نفسـك، ولكـن علـى الآخريـن، بعدمـا حـدث؟»

قالـت: «لا، إذا شـعرت ولـو للحظـة بأننـى قـد أوذى أحـدا، فسأموت».

سألها فان هيلسينج فى عجل: «هل ستقتلين نفسك؟»

أجابـت: «سـأفعل ذلـك، إذا لم أجـد صديقًـا يحبنـى حبًّـا يجعلـه يفعـل ذلـك مـن أجلـي». قـال فـان هييلسـنج مؤكـدًا « مطلقًـا ! لا يجـب أن تموتـي، ليـس بيـد أى شـخص، ولا

بيدك أنت. الآن وقد احتسيت شربة دماء من أوردته، إذا متِّ قبل الكونت، فلن تموتى بالفعل، بل ستعيشين إلى الأبد، كما حدث له، والآن لابد أن يموت هو قبلك، وسيلقى حتفه، أما أنت فستعيشين حياة طويلة وسعيدة مع زوجك، يجب أن تكافحى وتناضلى فى كل وقت من أجل حياتك. هل تفهمين؟»

قالت مينا: «نعم، أفهم».

التفت فان هيلسنج للآخرين قائلاً: «جيد. أمامنا نهار طويل نستطيع خلاله أن نمسك به. أن نجد مزيدًا من توابيت التراب وأن نعقمها، سيظل الكونت فى الصورة التى هو عليها الآن أيا كانت هذه الصورة حتى تغرب الشمس، إنه مقيد بقيوده الخاصة. فلنباشر العمل!»

obeikandl.com

الفصل السادس عشر

الخبز يحرق مينا

قـرر الرجـال أن يتوجهـوا للمنـزل الكائـن فـى بيكاديللـي، وأن يبقـى فـان هيلسـنج ودكتـور سـيوارد وجوناثـان هنـاك بينمـا يغـادر اللـورد جودالمينـج وكوينسـى موريـس للبحـث عـن التوابيت فـى مواقـع عديـدة أخـرى ويدمروهـا، قـال فـان هيلسـنج إن الكونـت ربمـا يظهـر فـى بيكاديللـى نهـارًا فـى صـورة بشـرية، وفـى هـذه الحالـة سـيواجهونه.

كانـت مينـا سـتبقى بأمـان فى المصحـة حتى غروب الشـمس؛ حيـث لم تكـن تقـوى علـى السـفر، وسـيحرص الرجـال علـى العـودة قبـل ذلـك. ومـع ذلـك، نشـر فـان هيلسـنج – للاطمئنـان فقـط – الثـوم والصلبـان فـى أنحـاء الغرفـة، ثـم أخـرج قطعـة مـن خبـز القربـان ولمـس بهـا جبهتهـا.

عندمـا لمـس الخبـز بشـرتها، صرخـت مينـا صرخـة مدويـة خلعـت قلـوب الجميـع، لقـد حـرق الخبـز لحمهـا، تـاركًا

عليهـا ندبـة وكأنـه قطعـة معـدن ملتهبـة!

أدرك الجميـع علـى الفـور دلالـة ذلـك، لقـد سممهـا الكونـت بالفعل، وكانت تسير بخطى ثابتة فى الطريق إلى أن تصبح نسخةً منـه. نزلـت على ركبتيها وهـى تبكـي: «ملوثة! ملوثة! أصبحت مجـبرةً الآن علـى أن أحمـل وصمـة العـار هـذه علـى جبيـني!»

حـاول فـان هيلسـنج أن يهـدئ مـن روعهـا فقـال: «هـذه الندبـة سـتختفى مـا إن يختفـى ذلـك الوحـش الـذى لا يـزال يطبـق علـى أنفاسـنا هـو الآخـر، سـتكون جبهتـك يومًـا مـن الأيـام نقيـة كنقـاء قلبـك الـذى لا نـزال نعرفـه».

قبـل التوجـه إلى بيكاديللـي، عـرَّج علـى منـزل كارفاكـس لتطهـيره، عـن طريـق نثـر أجـزاء الخبـز المقـدس فـى كل التوابيـت الموجـوده بـه، ومـا إن وصلـوا بيكاديللـى حتـى بـدأوا فـى اتبـاع الخطـة التـى كانـوا قـد وضعوهـا، تظاهـر اللـورد جودالمينـج بأنـه مالـك العقـار وأن البـاب قـد انغلـق دونـه ولا يسعه الدخـول ووقـف الآخـرون يراقبـون مـن متنـزه فـى الجانب الآخـر مـن الشـارع بينمـا كان مصلـح الأقفـال يفتـح القفـل. مـرت الشـرطة فعـلاً علـى جانـب الطريـق ورفعـوا قبعاتهـم تحيـةً للورد جودالمينـج ومصلـح الأقفـال متمنـين لهـم نهـارًا سـعيدًا! أدرك الرجـال أن الأمـر كلـه يتوقـف علـى طريقـة تصـرف المـرء.

وفـور أن دخـل الرجـال وأغلقـوا الأبـواب خلفهـم، أجـروا بحثًـا سـريعًا، لم يكـن الكونـت هنـاك، لكنهـم وجـدوا بالفعـل

ثمانيـة توابيـت أخـرى وعقموهـا، كان التابـوت التاسـع مفقـودًا، لكنهـم وجـدوا العديـد مـن الأوراق المهمـة بالإضافـة إلى مفاتيـح منـازل أخـرى كانـت تُخـزن فيهـا المزيـد مـن توابيـت الـتراب.

خـرج اللـورد جودالمينـج وكوينسـى موريـس عازمـين علـى تدمـير التوابيـت المتبقيـة فـى المنـازل الأخـرى، وكان الوقـت يمر ببطء أثنـاء انتظـار جوناثـان وفـان هيلسـنج لهمـا، وفـى سـبيل تمضيـة الوقـت، قـص فـان هيلسـنج لدكتـور سـيوارد وجوناثـان المزيـد عـن الكونـت، قـال لهـم إنـه منـذ زمـن بعيـد، كان هـذا الوحـش فـى الواقـع رجـلاً عظيمًـا؛ كان جنديًّـا، ورجـل دولـة، وعالمًـا.

قاطـع قصـة فـان هيلسـنج صـوت طـرق علـى البـاب. لقـد كان ولـدًا جـاء يسـلم برقيـة، فتـح فـان هيلسـنج البـاب وسـلمه الولـد ورقـة. كانـت مـن مينـا.

كانـت الرسـالة تقـول: احـذروا مـن «د» لقـد غـادر كارفاكـس لتـوه. ويبـدو أنـه متجـه نحوكـم.

صـاح جوناثـان: « فليـأت ! لا أطيـق صـبرًا حتـى أمسـح ذلـك الوحـش مـن وجـه الأرض. أنـا علـى اسـتعداد لأن أبيـع روحـى لقـاء هـذا»

حـذره فـان هيلسـنج قائـلاً « لا تقـل مثـل هـذه الأمـور، لـن يبيـع أحـد روحـه، سـنقاتل هـذا الشـئ وجهًـا لوجـه».

عـاد موريـس واللـورد جودالمينـج، وأكـدا أن التوابيـت التـى كانـت فـى بيرموندسـى ومايـل إنـد قـد دُمِّـرت، لكـن فـى تلـك اللحظـة، سمـع الرجـال صـوت تدويـر مفتـاح برفـق داخـل القفـل الـذى كان قـد فُتـح مؤخـرًا فـى البـاب الأمامـى.

ودون أن يتفوهـوا بكلمـة، اجتمـع الرجـال كفريـق واحـد قابضـين بأيديهـم علـى صلبانهـم وخبزهـم المقـدس، كانـت الثوانـى تمـر ببطء رهيـب وكأنـه كابـوس، ثـم سرعـان مـا أتـت خطـوات حـذرة تسير فـى الـرواق. بـدا جليًّـا أن الكونـت كان مستعدًّا لمفاجـأة مـن نـوع مـا.

وبقفـزة واحـدة، كان فـى الغرفـة، يركـض نحوهـم كالنمـر قبـل أن يتمكـن أيهـم مـن إيقافـه. عندمـا رآهـم زمجـر بصـوت مرعـب وكشَّـر عـن أنيابـه. تحـرك جونـاثـان أولاً؛ فأخـذ سـكينًا وقفـز نحـو الكونـت، لكـن الكونـت كان سـريعًا فقفـز للخلـف وتجنـب الشـفرة التـى لم تصـب سـوى جـزء مـن معطفـه. الغريـب أن قطعًـا ذهبيـة سـقطت مـن الثقـب وأخـذت تـدور علـى الأرض.

اعتلـت وجـه الكونـت نظـرة غريبـة جمعـت بـين الكراهيـة والغضـب، تحولـت بشـرته الشـاحبة إلى لـون أصفـر مائـل للخضـرة، وازدادت عينـاه احمـرارًا وتوهجًـا، وفجـأة، انحنـى تحـت ذراع جونـاثـان، واغـترف بكفـه بعـض العمـلات الذهبيـة وألقـى نفسـه مـن النافـذة محطمًـا الزجـاج، عندمـا سـقط الكونـت

على الأرض، نهض ولم يصبه مكروه، فركض عبر الساحة، ودفع باب الحظيرة الموجودة فى نهاية العقار ففتحه.

التفت ليصرخ فى وجوهم: « تحلمون بأن تفوقونى ذكاءً! تظنون أنه بتطهير التوابيت لا تتركون لى مكانًا لأرتاح فيه، لكنى أملك المزيد ! لقد بدأ انتقامى للتوِّ ! لقد امتد على مر القرون، والزمن حليفي! لقد سقطت نساؤكم فى شركى بالفعل، وعن طريقهن ستكونون عبيدى أنتم وغيركم ! ستمتثلون جميعًا لأوامري! سأكون سيدكم ! »

زفر من أنفه صوت ينم عن الاستهزاء، ودخل الحظيرة وأغلق الباب وراءه، تبعه الرجال وفتشَّوا الحظيرة، لكن الكونت اختفى. لم يثبط ذلك من عزيمة فان هيلسنج الذى قال: « لقد عرفنا الكثير. يبدو جليًّا أنه يخشانا ويخشى الوقت. وإلا فلم تعجل هكذا؟ لماذا أخذ تلك العملات المعدنية؟ إننا نحرز تقدمًا. وغدًا نحرز المزيد. فلم يتبقَّ سوى تابوت تراب واحد فقط».

لكن الخوف بالطبع كان من أن يظل هذا التابوت الأخير مخفيًّا لسنوات، وأن تستمر حالة مينا فى التدهور حتى يستحوذ عليها الكونت تمامًا وتصبح ضحيته. لذا، كانوا يسابقون الزمن.

عاد الرجال إلى المصحة، وفى تلك الليلة على مائدة العشاء، قالت ميناعبارة فاجأت الجميع: لقد ذكرتهم بأنهم

بينما كانوا جميعًا تعساء يعانون، كان الكونت هو الأتعس على الإطلاق: «تخيلوا كم سيكون سعيدًا عندما يُدمر الجانب الشرير فيه مفسحًا الطريق للخير الذى بداخله ليحيا إلى الأبد، يجب أن تكونوا لطفاء معه من هذا المنطلق أيضًا».

توقفت عن الحديث، وللحظة توهجت الندبة التى كانت على جبهتها وكأنها تذكير أقوى، ثم قالت: « قد أحتاج إلى شفقة مماثلة يومًا ما. وأتمنى ألا تنكروها على. لابد أن تعدونى أنه إن جاء وقت تغيرت فيه كثيرًا حتى أصبح الموت خيرًا لي، فستفعلون اللازم، دون تردد ولو لحظة، لتمنحونى السلام».

ساد صمت رهيب، ثم كان كوينسى موريس أول من كسره قائلاً: «أعدك يا مينا ألا أتكاسل عن الفِعل الرهيب الذى طلبته منا».

قالت مينا وهى تقبِّل يده: «صديقى المخلص!»

سألها جوناثان: «وهل يجب أن أقطع ذلك الوعد أيضًا يا زوجتي؟»

أجابت : « يجب أن تفعل هذا أكثر من أى شخص آخر يا أحب الناس إلى.

الفصل السابع عشر

مينا تقرأ أفكار الكونت

خطرت لمينا فكرة. فحيث إنها أصبحت الآن متصلة بالكونت، أرادت من فان هيلسنج أن ينومها مغناطيسيًّا، ربما استطاعوا استخدام هذا التواصل لمصلحة المجموعة.

وقد فعل ذلك قبيل الفجر، حيث كانت مينا تشعر أنه أفضل وقت تستطيع التحدث فيه بحريتها، عندما فتحت عينيها بعد تنويمها، لم تكن هى نفس المرأة، كان يبدو جليًا أنها واقعة تحت تأثير سحر الكونت.

سألها فان هيلسنج: «أين أنت؟»

أجابت مينا بالنيابة عن الكونت: «لست متأكدًا. فقد كان ينقل آخر تابوت لديه عن طريق البحر، فى تلك اللحظة، طلعت الشمس، واستيقظت مينا.

سألت راجيةً: «هل نجح الأمر؟»

obeikandi.com

أجاب فان هيلسنج: «نعم، نجح».

أسرع الرجال بتتبع آخر خيط منحتهم مينا إياه. كانت هناك العديد من السفن فى ميناء لندن الكبير، لكن على الأقل أصبح لديهم الآن دليل يرشدهم. علموا لِمكان الكونت يحتاج إلى العملات المعدنية؛ كان يحتاجها لشراء تذكرة من أجل السفينة.

مكث جوناثان مع مينا متخلفًا عن الرجال الآخرين الذين ذهبوا للبحث فى الموانئ، شكوا فى أن الكونت يحاول الرجوع إلى ترانسلفانيا، وسرعان ما تأكدوا من ذلك، حين رأوا على متن سفينة تدعى «زارينا كاثرين» رجلاً طويل القامة، نحيفًا وشاحبًا، له أسنان ناصعة البياض ويرتدى زيًّا أسود بالكامل، قد وزع بعض الأموال على العاملين وسألهم عن السفينة التالية التى كانت ستبحر متجهة إلى البحر الأسود، كانت الصفقة قد عُقدت، وجئ بتابوت ضخم على متن السفينة، وكان من المقرر إنزال التابوت فى ميناء «فارنا» وتسليمه لوكيل هناك، بعد ذلك، استقرت فوق المركب ضبابة غامضة انقشعت بالسرعة نفسها التى تكونت بها. علم الرجال أن الكونت قد تسلل بداخل تلك الضبابة إلى ظهر السفينة ودخل التابوت، بيعدها أبحرت السفينة «زارينا كاثرين».

openelkanadi.com

علـى مـدار الأيـام القليلـة التاليـة، نَـوَّم فـان هيلسـنج مينـا بضـع مـرات أخـرى، وظلـت رؤياهـا تخـبره أن السـفينة فـى البحـر. وبالرغـم مـن ذلـك كان فـان هيلسـنج قلقًا. فـإذا كانـوا هـم يسـتطيعون أن يقـرؤوا أفـكار مينـا، فقـد يسـتطيع الكونـت فـى المقابـل أن يقـرأ أفكارهـا ويعـرف خططهـم التـى وضعوهـا لمحاربتـه.

كانـت مينـا يرادوهـا الخـوف نفسـه، وقالـت لزوجهـا : «عزيـزي، أتغـير كل يـوم أكثـر فأكثر ويقـوى ارتباطـى بالوحش، لابـد أن تسـتمروا فـى تنويمـى وتعرفـوا خططـه، لكـن حرصًـا علـى سـلامتكم وسـلامتى أيضًـا، يجـب ألا تخبرونـى بـأى شئ عـن خططكـم، حتـى تـزول الندبـة عـن جبهـتي».

قـررت المجموعـة أن تسـافر بـرًّا – ومعهـم مينـا هـذه المـرة – بحثًا عن الكونت. سـوف يسـتقلون قطار» أورينت إكسـبريس» من باريـس ليسـبقوا سـفينة الكونـت إلى فارنـا. كانـت أقصـى أمانيهم أن يصعـدوا علـى متن السـفينة مـا إن يجدوهـا، أثنـاء نـوم الكونت فـى تابوتـه بـين شـروق الشـمس وغروبهـا؛ حينهـا لـن يسـتطيع مقاومتهـم، ويجهـزون عليـه فـى التـوِّ، كمـا فعلـوا مـع لوسـى.

أثنـاء جلسـات التنويـم علـى مـتن القطـار، وبعـد أن سـبقوا الكونــت إلى فارنـا، كانــت إجابـات مينـا لا تـزال تشـير إلى وجـود السـفينة زارينـا كاثريـن فـى البحـر، كانـت مينـا تتحدث عـن أمـواج متلاطمـة ومیـاه تجـرى، وضبـاب وصريـر صـوارى

المراكب، وأخيرًا، علموا أن السفينة على بعد ٢٤ ساعة تقريبا، وأنها ستصل فارنا فى الصباح التالى. فى ذلك اليوم كانت مينا فى قمة الإعياء، ومرت بأصعب جلسات التنويم التى رأتها حتى ذلك الوقت.

وبحلول ظُهر اليوم التالي، لم تكن السفينة قد ظهرت على مرمى البصرِ بعد، ولم تُسمع أخبار عنها، لكن مينا كانت أفضل حالاً، فمع أن الندبة كانت لا تزال على جبهتها، فقد شعرت أنها عادت تقريبًا لذاتها التى ألفتها، وكأنها تحررت، كشفت جلسة التنويم فى ذلك اليوم مرة أخرى عن» أمواج متلاطمة» و «مياه تجري». كانت السفينة زارينا كاثرين لا تزال فى البحر إذن، ولكن أين ؟ كان يُفترض أن تصل إلى فارنا قبل ذلك بوقت طويل، هل كان الكونت يفر إلى ميناء آخر؟ وبعد مرور يومين، تلقى الرجال برقية أكدت أسوأ مخاوفهم. فبدلاً من الرسو فى ميناء فارنا – كما كانوا يتوقعون – دخلت زارينا كاثرين ميناء جالاتز ذلك اليوم، وكان ذلك الميناء يقع على مسافة أبعد عند أعلى النهر، على الفور، بدأ الرجال فى التحرك، سألوا: «متى يتحرك أول قطار إلى جالاتز؟»

طلب فان هيلسنج من مينا أن تتفضل بإحضار جدول مواعيد القطارات، وعندما رحلت، التفت إلى جوناثان وحدَّثه عن مخاوفه، عندما كانت مينا متعبة على نحو غير طبيعى منذ بضعة أيام ، كان السبب على الأرجح

هو أن الكونت قد أرسل روحه لتقرأ أفكارها، وضع فان هيسلنج إصبعه على فمه، لأن مينا كانت عائدة إلى الغرفة.

حاول كلا الرجلين أن يبدوا بريئين، لكن كان يبدو أن مينا أصبحت الآن تقرأ أفكارهما أيضًا. سألتهما: «لقد استغلنى. أليس كذلك؟ لقد قرأ أفكاري».

أومأ فان هيلسنج إليها.

قال فان هيلسنج محاولاً التخفيف عنها: «لكنك قد تكونين الآن أكثر حريةّ قليلاً بعيدًا عن قبضته. إن العقل الإجرامى عقل أنانى. وبما أنه قد حصل من خلال عقلك على ما يحتاجه ليفر منا، فإنه يظن أنه لم يعد يحتاج إليك، لكنه سيظن أنك انتهيت منه أيضًا».

وعلى متن القطار إلى جالاتز، أُثناء مزيد من جلسات التنويم التى خضعت لها مينا، أخبرت عن حدوث تغيير، قالت: «شئ ما يحدث، أشعر به يمر خلالى كأنه رياح باردة، هناك رجال يتحدثون بلغات غريبة، ومياه تتساقط، ومن بعيد، أسمع عواء الذئاب». وفى اليوم التالي، أخبرتهم أنها سمعت أصواتا مائية، وطقطقة أخشاب.

وصلوا إلى جالاتز وعلموا من مسئولى الجمارك أن سفينة الكونت قد رست بالفعل، وكان بانتظارها بعض السلوفاكيين الذين كان من المقرر أن ينقلوا الشحنة طوال ما تبقى من الطريق، عبر البحر، لكن أى بحر كان هذا؟

نظرت مينا إلى الخريطة، وقالت: «بناءً على ما تقولون أنى أخبرتكم به أثناء نومي، أعتقد أن النهر ضيق والسفينة مفتوحة تسيِّرها إما مجاديف أو صارٍ، وهى تبحر نحو أعلى النهر. فمثل هذه الأصوات لم تكن لتصدر عن سفينة تطفو بهدوء فى اتجاه التيار. ومن ثم، وفقًا لهذه الخريطة، فإنه يبحر إما فى نهر بروث أو سيريث، تسهل الملاحة أكثر فى نهر بروث، لكن سيريث أقرب من قلعة دراكولا لشخص يحاول الوصول إليها عن طريق البحر».

قال جوناثان: « زوجتى عبقرية «. ووافق الآخرون على هذا الرأى.

كانت هذه خطة فان هيلسنج: كما سبقوا الكونت إلى فارنا، سيحاولون مباغتته فى ترانسلفانيا، يصعد اللورد جودالمينج وجوناثان على متن قارب بخارى ويتبعانه بحرًا. ويتبعه كوينسى موريس وآرثر على ظهور الجياد برًّا، ويأخذ فان هيلسنج ومينا الطريق الذى كان جوناثان اتخذه فى البداية عندما فرَّ من قلعة الكونت عبر جبال الكاربات.

سأل جوناثان الأستاذ فان هيلسنج: «هل تعمد إلى وضع زوجتى بين حجرى رحا ذلك القاتل؟»

أجاب فان هيلسنج: « إنها الطريقة الوحيدة لإنقاذها، بل فى الواقع لإنقاذنا جميعًا».

الفصل الثامن عشر

الدائرة تدور على الكونت

لم يكن الإبحار يسيرًا على أى من أفراد المجموعة، فى أى من مراحله، فقد تأخر مركب اللورد جودالمينج وجوناثان وقتًا قصيرًا بسبب حادث بسيط وقع أثناء محاولتهما شق طريقهما بسرعة، وبالرغم من التأكيد على أن الكونت كان لا يزال فى الماء، فقد كان تنويم مينا يزداد صعوبة كل يوم.

مع اقتراب مينا وفان هيلسنج من القلعة، أصبحت مينا تنام طوال النهار. وأثناء الليل كان فان هيلسنج يبقى مستيقظًا فيجدها تحدث فيه بعينيه مضيئتين للغاية. خشى أن تكون قد أصابتها لعنة المكان، لأنها كانت ملوثة بتعويذة الكونت، وبالرغم من ذلك، كان عليه أن يؤمن بقوة إرادتها، بأن روحها كانت طاهرة، على الأقل لوقت أطول قليلاً.

لكن فان هيسلنج أحاط نفسه ومينا بدائرة صغيرة من الخبز المقدس فى المكان الذى توقفا فيه ليخيما ليلاً.

obeikandl.com

قال فان هيلسنج لمينا: «هلا اقتربت من النار؟» لقد كان اختبارًا؛ لأن النار كانت خارج الدائرة.

أجابت فى حزن: «تعلم أننى لا أستطيع».

فجأة، بدأت الخيول تصهل فى فزع، ركض فان هيلسنج عائدا داخل الدائرة بينما كان الضباب يدور حولهما، شاهد فان هيلسنج ومينا الضباب وكانت تتشكل بداخله أجسام، كانت الأخوات الثلاث التى وصفها جوناثان فى مذكراته.

ما إن رأت النساء الندبة على جبهة مينا، حتى ابتسمن لها، ونادَين عليها: «تعلى يا أختى ! تعالي! تعالي!» لكن عينى مينا لم يكن بهما سوى نظرة اشمئزاز بعثت الطمأنينة فى قلب فان هيلسنج. فاندفع خارجًا من الدائرة ممسكًا بعض الخبز المقدس، وفرت النساء، لكنهنَّ لم يبتعدن خاليات الوفاض، فقد تركن الخيول ميتة.

ترك فان هيلسنج مينا نائمة داخل الدائرة وسار إلى القلعة بمفرده، اقتحمها واتبع الطريق المؤدى إلى الكنيسة الصغيرة كما وصفه جوناثان فى مذكراته، كان يعلم أنه سيجد فى مكان ما ثلاثة قبور على الأقل ترقد بها الأخوات الثلاث عليه تطهيرها. وبالفعل وجدها وتولى أمرها.

وبعد ذلك، رآها، قابعة فى أعتم وأبعد زوايا الكنيسة: مقبرة هائلة جميلة وعتيقة. لم يكن مكتوبًا عليها سوى كلمة واحدة: «دراكولا». فتحها فان هيلسنج وكانت فارغة، فنثر

فيها بعض كسرات الخبز المقدس، ليقصى الكونت إلى الأبد عن مأواه الذى ضمه مئات السنين.

عندما عاد فان هيلسنج إلى معسكرهما، وجد مينا لا تزال نائمة فى هدوء وأمان داخل الدائرة، ولكن بينما كان يوقظها، استعدادًا لأن يعود بها إلى القلعة، سمعا عواء ذئاب قادمًا من بعيد وصوتًا أشبه بضجة تقترب سريعًا.

صاح: «لا يوجد وقت، أسرعي، لابد أن نختبئ!» وجد فان هيلسنج تجويفًا ضيقًا فى صخرة، واختبأ الاثنان به، من ذلك المكان، كانا يستطيعان الدفاع عن أنفسهما ضد من يهاجمهما بشرًا كان أم ذئبًا.

من موقعهما شاهق الارتفاع فوق الجبال، كانا يستطيعان رؤية المشهد بالأسفل بوضوح، غامرت مينا بالإطلال برأسها للخارج برهة، فرأت شيئًا يصعد مسرعًا أحد جوانب الجبل. لقد كانوا مجموعة من الغجر يقودون عربة تحمل صندوقًا كبيرًا مربعًا. الكونت! كان الغجر يسابقون غُروب الشمس، حيث إن الكونت لابد أنه أمرهم ودفع لهم ليوصلوه إلى منزله قبل حلول ساعة السَّحر.

وخلف تلك المجموعة، كان يركض بسرعة رجلان يمتطيان جواديهما، كانا كوينسى موريس ودكتور سيوارد! وعلى الجانب الآخر من الجبل - حيث كان هناك طريق آخر يؤدى الى الغابة - رأت مينا رجلين آخرين، حبيبها

جوناثـان واللـورد جودالمينـج، وكانـا يمتطيـان جواديـن أيضًـا ويركضـان إلى قلـب الحـدث. كانـت تلـك الحركـة المنظمـة أشبه برقصـة جميلـة، عندمـا أخـبرت مينـا فـان هيلسـنج، صـاح فـى طـرب كالطفـل الصغـير.

اقـترب الغجـر شـيئًا فشـيئا، بقـى فـان هيلسـنج ومينـا مختبئـين فـى الصخـور، شـاهرين أسـلحتهما، وعازمـين علـى منـع الغجـر مـن المـرور. وصلـت جميـع الأطـراف أرض الغابـة المقفـرة فـى وقـت واحـد، ومـن جهتـين متقابلتـين، صـاح الصيـادون فـوق ظهـور الجيـاد: «توقفـوا!» ربمـا لم يكـن الغجـر يفهمـون اللغـة، لكـن لم يخـفَ عليهـم معنـى تلـك الكلمـة ولا الأسـلحة المصوبـة نحوهـم.

أسـرع جوناثـان وكوينسـى موريـس نحـو العربـة، تملكـت جوناثـان قـوة غريبـة أكثـر مـن الآخريـن، قـوة خارقـة، تفـادى سـكاكين الغجـر وعـبر إلى الصنـدوق الكبـير الممتلـئ بالـتراب فرفعـه ثـم طرحـه أرضًـا.

هـرع كوينسـى موريـس ليسـاعده، متفاديًـا السـكاكين أيضًـا، لكنـه لم ينجـح كصديقـه، فقـد اخترقـت إحـدى السـكاكين جانبـه وبـدأ ينـزف بشـدة، ومـع ذلـك، اسـتمر يقاتـل، انتـزع الرجـلان معًـا الغطـاء مـن فـوق الصنـدوق الكبـير، ووقـف الآخـرون يؤمنونهـم بأسـلحتهم.

وداخل الصندوق، رأوه راقدًا، ذلك المخلوق الذى ظلوا يسعون وراءه كل هذا الوقت؛ دراكولا. كان الكونت يرقد بهدوء داخل الصندوق، شاحبًا كالأموات، وكأنه تمثال من الشمع، كانت عيناه بالرغم من ذلك مفتوحتين تطل منهما نظرة شر كانوا جميعًا يعرفونها جيدًا.

وفى تلك اللحظة رأت هاتان العينان الشمس تغيب فى الأفق، وتحولت نظرة الكراهية فيهما إلى نشوة انتصار. ظن الكونت أنه فاز مرة أخرى، فور أن تغرب الشمس، سيكون بمأمن من أى مكروه.

ولكنه تسرع بإيقان النصر! ففى تلك اللحظة هاجمه جوناثان وكوينسى موريس فاخترقا قلبه وقطعا رأسه بسكينيهما. وأمام أعينهم جميعًا، انهار جسد الكونت بالكامل إلى ثرى واختفى.

أفزع الغجر الاختفاء المفاجئ للجثة، فرجعوا أدراجهم لينجوا بحياتهم. حتى الذئاب تراجعت إلى مسافة آمنة، وتركت المجموعة وشأنها.

تهاوى كوينسى موريس على الأرض منحنيًا على مرفقه ضاغطًا بيده على جانبه. ولاحظت مينا أن الدماء تندفع من بين أصابعه. فأسرعت إليه، والطبيبان أيضًا، لكن لم يكن بيد أحدهم شئ يفعله، التقط كوينسى موريس أنفاسه وأخذ بيد مينا وابتسم لها ابتسامة عذبة.

قال: «سعيد بأننى استطعت مساعدتك». وضحك فجأة مشيرًا إلى جبهتها قائلاً: «رائع! انظروا! كانت رؤية هذا تستحق التضحية، انظروا! انظروا!».

سقطت أشعة الشمس التى كانت فى طريقها إلى المغيب على وجه مينا، فأضفت عليه وهجًا ورديًّا وعندما التفتوا إلى حيث كان كوينسى موريس يشير، رأوا ما كان يقصده. لقد اختفت الندبة، كانت جبهة مينا نقية كالثلج، لقد انقشعت اللعنة.

عندئِذٍ رحل عنهم كوينسى موريس؛ ذلك الرجل الذى ظل همامًا نبيلاً حتى النهاية.

بعد مرور سبع سنوات، عادت مينا وجوناثان إلى ترانسلفانيا، كان برفقتهما ابنهما كوينسى الذى سمى باسم صديقهما القديم الجسور، وبينما كانا يسيران على الأرض التى عجَّت يوما بالذكريات المريعة ممسكين بأيديهما يدى كوينسى الصغير، تذكرا أحداث الماضى دون شعور باليأس وهما يتذكران الأشياء العظيمة التى يستطيع الناس أن يفعلوها فى سبيل الحب.

obeikandl.com

طبع بمؤسسة بسطرون
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩